مكتبة الشباب

الصداقة والصديق

لأبى حيان التوحيدى

عرض وتبسيط

محمد رجب

الحائز على جائزة الدولة التشجيعية

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م

حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع : ١٤٨٧٥ / ٢٠٠٧

الترقيم الدولي : I- 525-361-977

سفير الدولية للنشر

١٦ ش محمد عز العرب من ش القصر العيني - ص.ب : ٤٢٥ الدقي - القاهرة

ت : ٢٠٢-٢٥٣٢٩٤٠٢+ فاكس : ٢٠٢-٢٥٣٢٩٥٠٥+

E-Mail: info@Safeer.com ـ Web Site: www.safeer.com.eg

المعرض الدائم

٤٨ ش أحمد عرابي المهندسين

تليفون : ٣٣٠٤٩٤٠٣ / ٢٠٢+

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٤
الباب الأول : عن التوحيدى	
حياته	١١
مشايخه	١٢
حرفته	١٥
حكاية التوحيدى مع الوزراء	١٧
لماذا أحرق التوحيدى كتبه؟	٢٥
وفاته	٢٨
مؤلفاته	٣٠
الباب الثانى : كتاب الصداقة والصديق	
أقسام الكتاب	٣٢
مقدمة الرسالة	٣٣
مع التصوف	٤٤
مع الفلاسفة	٥٢
مع الخلفاء وأرباب السياسة	٥٨
مع الكتاب والمفكرين	٦٥
مع الشعراء	٧٨
من أقوال أبى سليمان والتوحيدى	٨٦
من آراء التوحيدى فى الصداقة والصديق	٨٨
تعقيب	٩٣
الفهرس	٩٦

مقدمة

* من هو الصديق الحق ؟

* ما هى الصداقة ؟

* كيف نكسب الأصدقاء ؟

* كيف نستبقيهم ونحافظ عليهم ؟

* ما هى ثمار الصداقة ؟

* ما الذى يحفظ الصداقة ولماذا تزول ؟

أسئلة كثيرة حاول الكُتّاب على مر العصور أن يجيبوا عنها، بحسب ما اكتسبوا من خبرة، وبحسب ثقافاتهم ومعرفتهم.. منهم من أصاب، ومنهم من أخفق..

ومن هؤلاء مؤلف كتاب الصداقة والصديق، العلامة التوحيدى، والمفكر الكبير مصطفى صادق الرافعى فى كتابه السَّحاب الأحمر، والشاعر البديع الدكتور إبراهيم ناجى صاحب قصيدة الأطلال الشهيرة، والذى تناول موضوع الصداقة فى محاضرة عامة عام ١٩٢٦م، وغير هؤلاء الثلاثة كثير من الصحفيين، منهم ديل كارنيجى صاحب كتاب كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر فى الناس ؟

ونحن .. لنا فهم مختلف للصداقة، ولا نربطها بالجنس أو الانحلال الخلقى...

فكيف عبّر المفكرون العرب الثلاثة عن موضوع الصداقة ؟

* * *

أما أولهم، العلامة التوحيدي، صاحب كتابنا هذا الصداقة والصديق، فإنه في مقدمة الكتاب يقدر الصداقة حق قدرها، ويدافع باستماتة عن الصديق . .

يكفي أن الرجل ظل ثلاثين سنة من عمره في تأليف كتابه الجميل !

يقول التوحيدي إن حديث الصديق حلو، ووصف الصاحب مطرب . . ألم يؤثر عن علي بن أبي طالب قوله : قليل للصديق الوقوف على قبره ؟

يكفينا ما أورده التوحيدي في شأن الصديق الصدوق، تلك الحكاية الطريفة عن الرجل الذي قرع بالليل باب صديقه يطلب عونه، فجاءه تصحبه جارية وفي يديه كيس مال وسيف بتار، يسأله عما يطلب، فالمال ليعينه على النوائب، والسيف ليخلصه من عدوه، والجارية لتؤنس وحشته !

يورد التوحيدي آراء الفلاسفة وأقوالهم عن الصداقة.

يقول أفلاطون : لا ينبغي للعاقل أن يتمنى لصديقه الغنى فيزهى عليه، ولكن يتمنى له أن يساويه في الحال .

وقال أحد الفلاسفة : الإنسان بلا أصدقاء كالشمال بلا يمين . .

وقال سقراط : مما يدل على عقل صديقك ونصيحته لك أنه يدلك على عيوبك، ويخفيها عنك، ويعظك بالحسنى، ويتعظ بها منك، ويزجرك عن السيئة، وينزجر عنها لك . .

وما أروع حديث الصوفية في الصداقة . .

قيل لصوفي :

– من الصديق ؟

قال :

– من لم يجدك سواه، ولم يفقدك من هواه .

وقيل للشبلي :

– من الرفيق ؟

قال :

– من أنت غاية شغله، وأوكد فرضه ونفله . .

قيل له :

– فمن الشفيق ؟

قال :

– من إن دهمتك محنة قذيت عينه لك، وإن شملتك منحة قرت عينه بك .

قيل له :

– فمن الوافي ؟

قال :

– من يحكي بلفظه كمالك، ويرعى بلحظه جمالك . .

قيل له :

– فمن الصاحب ؟

قال :

– من إن غاب تشوقت إليه الأحباب، وإن حضر تلقحت به الألباب .

* * *

فما هو موقف الرافعي من الصداقة ؟

إنه يربط الصداقة بالحب ..

يقول في شأن الحب ..

قلبي هو الذهبُ الكريـ ـمُ فـلا يفـارقه رنينُه
قلبي هو الألمـاسُ يُعـ ـرف من أشعته ثمينُه
قلبي يحـب وإنمـا أخـلاقه فيـه ودينه

لكنه يربط الصداقة بشروط ..

يقول : (لن يكون الصديق صديقًا إلا إذا عرف لك الحق وعرف لك الحب !)

لا أريد بالصديق ذلك القرين الذي يصحبك كما يصحبك الشيطان :

لا خير فيه إلا في معاداته ومخالفته .. ولا ذلك الرفيق الذي يتصنع لك ويماسحك متى كان فيك طعم العسل لأن فيه روح ذبابة ..

ولا ذلك الحبيب الذي يكون لك في هم الحب كأنه وطن جديد.

وقد نفيت إليه نفي المبعدين، ولا ذلك الصحاب الذي يكون كجلدة الوجه، تحمر وتصفر؛ لأن الصحة والمرض يتعاقبان عليها، فكل أولئك الأصدقاء لا تراهم أبدًا إلا على أطراف مصائبك، كأنهم هناك حدود تعرف بها من أين تبتدئ المصيبة لا من أين تبتدئ الصداقة..

ولكن الصديق هو الذي إذا حضر رأيت كيف تظهر لك نفسك لتتأمل فيها، وإذا غاب أحسست أن جزءًا منك ليس فيك، فسائرك يحنّ إليه، فإذا أصبح من ماضيك بعد أن كان من حاضرك، وإذا تحوّل عنك ليصلك بغير المحدود كما وصلك بالمحدود، وإذا مات يومئذ لا تقول إنه مات لك ميت، بل مات فيك ميت، ذلك هو الصديق...

* * *

أما الشاعر إبراهيم ناجى فيربط الصداقة بالتضحية.. بالحب..

يورد قول المسيح عليه السلام : «إن أرقى درجات الحب فى نظرى أن يموت رجل فداء أخيه».

ويؤكد ناجى أن أهمية الصداقة تتمثل فى أنها تجعلنا ننظر بقلوبنا وعيوننا معًا..

عند ناجى أن الصداقة عطاء.. يجب أن تعطى أولاً لتأخذ.. «أن لا تكون أنانيًا. كن مستعدًا لأن تبذل لصديقك ما تحب أن يبذل لك».

كيف نستبقى أصدقاءنا ؟

يجيب ناجى بأن ذلك يتم بأمور خمسة هى :

أولا : بأن يفهم الصديق صديقه.

ثانيـا : بأن يروض نفسه على تقبل عيوب صديقه..

ثالثـا : بأن يحسن الظن بصديقه..

رابعًـا : بأن ينتهز الفرصة ليخدم صديقه..

خامسًا : بأن يوقن بأن صديقه فى حاجة دائمة إلى عونه ودعمه.

* * *

والصداقة العملية فى المجتمع هى التعاون..

والأصدقاء صنفان :

– صديق يفاخر بكرهه للتملق، ويرميك بالحقيقة بصراحة فيها خشونة وجلافة وعدم تهذيب.

– وصديق يصارحك بالحقيقة، لكن برفق ولين.. ويؤكد ناجى على

أهمية الحفاظ على الصداقة بأي ثمن.. فالصداقة كنز، ولا طعم للحياة بغيرها..

* * *

أعزائي ...

عليكم بالحفاظ على الصداقة، فهي كنز عزيز..

وما أروع الصداقة التي تدوم بدوام العمر..

فنقبوا عن الصداقة ولو اضطررتم إلى حمل مصباح ديوجين في رائعة النهار بحثًا عن الصديق العزيز !

* * *

الباب الأول
عن التوحيدى

حياته :

اسمحوا لي، أعزائي القراء ، أن أقدم إليكم كاتبًا عجيبًا ، كاتبًا يسوق إلينا مؤلفًا موسوعيًا فريدًا في بابه .

أما الكاتب فهو أبو حيان التوحيدى ، وأما كتابه البديع فهو رسالة رائعة بعنوان (الصداقة والصديق) .

وفي البداية ، هلم بنا نتعرف على حياة الرجل ومؤلفاته ، وإسهاماته في فن القول في عصره ... القرن الرابع الهجري...

إنه أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدى ، المولود بمدينة بغداد دار السلام عام ٣١٠ للهجرة ...

كان أبواه فقيرين ، فأبوه تاجر تمر متنقل ، ذلك التمر اسمه " التوحيد " والنسبة واضحة ، فالتوحيدى منسوب إلى تمر " التوحيد " ...

لم يحرص أبو حيان على الحديث عن أسرته ولا عن نشأته الأولى..وحسبنا أن نعلم أنه لم يتزوج ولم ينجب رغم شهرته بأبى حيان، وربما كان في ذلك متشبها بالفارابي الذى اشتهر بأنه أبو نصر ، وهو ما تزوج وما أنجب ..

ويبدو أن ميله إلى التنقل ، وولعه بالأسفار ، قد حالا بينه وبين الاستقرار ، فلم يكن في وسعه أن يفكر في تكوين أسرة ، أو أن يقنع من العيش بتربية بعض الأبناء .يذكر مرجليوث في " دائرة المعارف الإسلامية " أن التوحيدى قد صرف القسم الأكبر من حياته في بغداد ، وهنا نستنتج من أحاديثه ورسائله أنه كان يتنقل بين بغداد ، والرى ، ونيسابور ، وشيراز ، وغيرها .. وأغلب الظن أن معظم هذه الأسفار كان إما طلبًا للعلم ، أو

بحثًا عن الرزق، مما حدا بالبعض إلى القول بأن أبا حيان كان دائمًا قلق الركاب، لايكاد يستقر في مكان إلا ويزعجه أمر إلى ارتياد سواه.

مشايخه:

دفع حب التنويع الذى اتسمت به اخلاق هذا الرجل إلى الأخذ من كل علم بطرف، فكان من ذلك اهتمامه بدراسة الفقه والحديث، وانشغاله بالكلام والتوحيد، وعنايته بمسائل المنطق والفلسفة، وانصرافه إلى البحث فى اللغة والنحو، ثم اشتغاله أخيرًا بالتصوف. كان " شخصية فلسفية طلعة تستخلص الأسئلة من كل ما يقع امامها، سواء أكانت المسائل خلقية أم لغوية أم اقتصادية أم نفسية .." فلم يكن اهتمام أبى حيان بكل هذه المعارف سوى نتيجة لميله إلى الدهشة، ونزوعه نحو التساؤل، واستعداده للبحث . فإذا أضفنا إلى هذا أن القرن الرابع الهجرى كان عصرا ثقافيًا خصبًا ظهر فيه الكثير من نوابغ الأدب والفلسفة والمنطق والنحو والفقه والتفسير والكلام والتصوف، أمكننا أن ندرك السر فى تلك " الروح الموسوعية " التى أتاحت لأبي حيان الفرصة للمزج بين كل تلك الثقافات ، وهذا ما حدا ببعض الباحثين إلى القول بأن التوحيدى "كان فيلسوفا مع الفلاسفة، ومتكلمًا مع المتكلمين، ولغويًا مع اللغويين، ومتصوفًا مع المتصوفين ".

تتلمذ التوحيدي على خمسة من الشيوخ، ذكرهم بالخير، ولهج بمعرفهم وبالثناء عليهم لسانه وهم :

أبو سليمان السجستانى، وأبو زكريا بن عدى، وأبو سعيد السيرافى، وعلى بن عيسى الرمانى، وأبو حامد أحمد بن بشر المورورذى ...

حرفته :

احترف التوحيدي نسخ الكتب أو الوراقة ..

جاءت حرفة الوراقة فقربته من عالم الكتب، إذ كان عليه أن يسترزق من مهنة النسخ والنقل والتصحيح ، كما كان عليه أن ينسخ الكثير من أمهات الكتب العربية لبعض الوزراء والكبراء، والكثير من الأدباء والفلاسفة – في القرن الرابع الهجري – كانوا يجدون أنفسهم مضطرين إلى ممارسة هذه المهنة ، طلبًا للرزق مثل يحيى بن عدى، وأبى سعيد السيرافى، وابن النديم، غيرهم كانوا يشتغلون بنسخ الكتب وتصحيحها ولكن أبا حيان التوحيدى لم يشتغل بهذه الحرفة إلا على مضض، فإنه كان يطمع فى الحصول على مركز اجتماعى يتناسب مع مستواه العلمى، ولعل هذا هو السبب فى أننا نراه يحاول الاتصال بالوزراء والكبراء ، طمعًا فى التخلص من تلك المهنة الشاقة التى كان يقول : إنها " حرفة الشؤم "؛ لأن فيها " ضياع العمر والبصر ".

حكاية التوحيدى مع الوزراء

مع المهلبى:

اتصل التوحيدى بالوزير أبى محمد الحسن بن محمد المهلبى ، وزير معز الدولة كان المهلبى محبًا لأهل العلم والأدب، عطوفًا على الكُتّاب والأدباء، فليس بمستبعد أن تكون هذه الشهرة هى التى شجعت أبا حيان على محاولة الاتصال به والتقرب إليه . والظاهر أن التوحيدى قد جاهر أمام الوزير ببعض الآراء الحرة التى لم يرض عنها المهلبى، خصوصا وأن الشائع عنه أنه كان بعيدًا كل البعد عن روح التسامح مع أصحاب العقائد والبدع ، فنفاه من بغداد .

مع ابن العميد :

غادر أبو حيان بغداد – راضيًا أو ساخطًا – بقصد الرحيل إلى الرى للاتصال بأبى الفضل بن العميد، وكان لابن العميد – فى ذلك الوقت – قدر مهيب، كان الشعراء يقصدون بابه لكرمه وسخائه ، كما كانوا يثنون عليه لفصاحته وبلاغته . ومن بين الذين مدحوا ابن العميد من الشعراء أبو الطيب المتنبى، كما أثنى عليه من بين الفلاسفة مسكويه الذى عهد إليه ابن العميد بمنصب " خازن كتبه "، وكان أبو حيان ينتظر من ابن العميد أن ينقذه من براثن الفقر ، وأن يسبغ عليه الكثير من العطايا، ولكن الظاهر أنه لم يظفر منه بما كان يطمع فيه .

لم يستطع ابو حيان أن يتحمل من ابن العميد مثل هذا الشح ، فراح يشنع عليه لبخله ، ثم لم يلبث أن راح يحط من قدره ولعل من هذا

القبيل مثلاً قوله: "كان (أي أبو الفضل بن العميد) يظهر علمًا تحته سفه، ويدعي علمًا هو به جاهل، ويرى أنه شجاع وهو أجبن من (دابة)، وكان يدعي المنطق وهو لا يفي بشيء منه، ولم يقرأ حرفًا على أحد، ويتشيع بالهندسة وهو منها بعيد، ولم يكن معه من صناعة الكتابة الأصل وهو الحساب، وكان أجهل الناس بالدخل والخرج، وكان (يظن) أنه واحد الدنيا، وأن ملوك الأرض يحسدونه .. وأنه لسان الزمان، وخطيب الدهر وأن قلمه فوق السيف .. ومع هذا كان سيئ السيرة، قليل الرحمة، شديد القسوة، وارم الأنف، عظيم الفيه، شديد الحسد لمن نطق ببيان، أو أفصح بالعربية .."، والمتأمل في هذا النص يلاحظ أن أبا حيان يأخذ على ابن العميد صلفه وغروره، ويلومه على غيرته وحسده، مما يوحي بأن التنافس الأدبي الذي قام بين الرجلين كان هو المسئول عن عجز أبي حيان عن الظفر بتشجيع ابن العميد ..

مع ابن عباد :

غادر أبو حيان بغداد حوالي سنة ٣٦٧ هجرية قاصدًا مدينة الري مرة أخرى للاتصال بالوزير الصاحب بن عباد، وقد كانت خيبة أمله في ابن العميد سببًا في إقباله على باب الصاحب، آملاً أن يجد عنده ما لم يظفر به عند ابن العميد. وكان التوحيدي قد سمع عن كرم الصاحب، فقصده "بأمل فسيح، وصدر رحيب" ولكنه لم يستطع أن ينال حظوته؛ لرفضه أن يكون كاتب الإنشاء. وقد روى لنا التوحيدي قصة وقوفه بباب الصاحب فقال: إنه لما وصل مدينة الري، قال له الصاحب:

" الزم دارنا ، وانسخ لنا هذا الكتاب، فقلت : أنا سامع مطيع ، ثم قلت لبعض الناس في الدار مسترسلاً : إنما توجهت من العراق إلى هذا الباب، وزاحمت منتجعي هذا الربيع، لأتخلص من حرفة الشؤم؛ فإن الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة، فتمى إليه هذا أو بعضه أو على غير وجهه، فزاده تنكرا، وكان الرجل خفيف الدماغ لايعرف الحلم إلا بالاسم " .. وواضح من هذه القصة أن أبا حيان لم يكن ينتظر من الصاحب بن عباد ان يعهد إليه بعمل من أعمال الوراقة التى كان قد سئمها وتمنى التخلص منها .

انتهت العلاقة بين الرجلين بالقطيعة؛ إذ فارق التوحيدى فناء الصاحب ابن عباد سنة ٣٧٠هـ، بعد صلة دامت حوالى ثلاث سنوات، رجع على اثرها إلى مدينة السلام صفر اليدين. والتوحيدى يقرر أن الصاحب لم يعطه طوال هذه المدة درهمًا واحدًا، أو ما قيمته درهم واحد.

مع ابن سعدان :

كان التوحيدى أكثر توفيقًا مع الوزير أبى عبد الله الحسن بن سعدان (المتوفى سنة ٣٧٥ هـ) وزير صمصام الدولة البويهى. وقد كانت حلقة الاتصال بينهما شخصية عالمة فاضلة، التقى بها التوحيدى فى فارس، فسرعان ما توثقت بينهما أواصر المودة، وتلك هى شخصية أبى الوفاء المهندس البوزجانى الذى أهدى إليه أبو حيان كتابه " الإمتاع والمؤانسة" تقديرًا له واعترافا بفضله. توطدت العلاقة بين أبى حيان والوزير ابن سعدان ، فنسخ له كتاب الحيوان للجاحظ، وألف له رسالة في " الصداقة

والصديق" وسامره بكل تلك الأقاصيص والأحاديث التي رواها في "الإمتاع والمؤانسة". كان لابن سعدان ناحية علمية أدبية صوّرها لنا أبو حيان في كتبه، فهو واسع الإطلاع، له مشاركة جيدة في كثير من فروع العلم من أدب وفلسفة وطبيعة وإلهيات وأخلاق، يدل على ذلك حواره الذي يحكيه أبو حيان .. فهو يسأل أسئلة عميقة، وينقد الإجابة عنها نقدًا قيمًا". لم يكن لدى التوحيدي من اللباقة والكياسة ما يستطيع معه مجالسة الوزراء ومسامرة الكبراء ، بدليل ما وصفه به صديقه أبو الوفاء حين قال : إنه "غر لا هيئة له في لقاء الكبراء ، ومحاورة الوزراء" ومع ذلك فقد وصله أبو الوفاء بابن سعدان ، وهيأ له الفرصة للاختلاء بالوزير ، والإلقاء إليه بما شاء واختار . وكان أول ما طلبه أبو حيان من الوزير أن يأذن له بتوجيه الخطاب إليه بالكاف والتاء ، ليتكلم من غير تكلف أو كناية أو حرج أو تعريض . ولم يلبث أبو حيان أن اطمأن إلى مجالس الوزير ، فكان يتكلم في حضرته بصراحة ، ولم يكن يتحرج في رواية أقذع النوادر والملح ، بل كان يبدي رأيه في حاشية الوزير نفسه دون خوف أو خشية لقد وجد أبو حيان لدى ابن سعدان صدرًا رحبًا،وأذنًا صاغية، ويدًا ممدودة. نراه يكتب إلى الوزير قائلاً: "قد شاهدت ناسًا في السفر والحضر ، صغارًا وكبارًا وأوساطًا ، فما شاهدت من يدين بالمجد، ويتحلى بالجود، ويرتدي بالعفو، ويتأزر بالحلم، ويعطى بالجزاف، ويفرح بالأطياف، ويصل الإسعاف بالإسعاف، والإتحاف بالإتحاف، غيرك . والله إنك لتهب الدرهم والدينار وكأنك غضبان عليهما، وتطعم الصادر والوارد كأن الله قد استخلفك على

رزقهما، ثم تتجاوز الذهب والفضة إلى الثياب العزيزة، والخلع النفيسة، والخيل العتاق ، والمراكب الثقال ، والغلمان والجوارى ، حتى الكتب والدفاتر وما يضنُّ به كل جَوَّاد ، وما هذا من سجايا البشر ، إلا أن يكون فاعل هذا نبيًا صادقًا ، ووليًا لله مجتبى ".

لكن يشاء سوء الحظ أن يلاحق التوحيدى إلى النهاية ، فقد بقى ابن سعدان فى الوزارة مدة قصيرة ،ثم أقاله منها صمصام الدولة سنة ٣٧٥هـ وعين مكانه عبد العزيز بن يوسف، خشى أبو حيان أن يلاحقه أعوان الوزير الجديد؛ لأنه كان من رجالات الوزير السابق، فآثر الاختفاء عن أعين رجال ابن يوسف، وهرب إلى شيراز حيث راح يتردد على المتصوفة ويعيش معهم .

* * *

لماذا أحرق التوحيدى كتبه؟
يسوق التوحيدى الأسباب التى دفعته إلى حرق كتبه ..

الأول: ان العلم يراد للعمل، والعمل يراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصرا عن العلم، كان العلم كلاً على العالم . والتوحيدي يشعر بان علمه قد أصبح كلاً، وأنه قد صار في رقبته غلاً ، فهو لايجد حرجا في إحراق كتبه ما دام علمه قد اصبح عديم الجدوى فى حياته.

الثاني: ان هذه الكتب قد حوت من اصناف العلم سره وعلانيته ، فأما ما كان سرًا فهو لم يجد له من يتحلى بحقيقته راغبا، وأما ما كان علانية فهو لم يعصب من يحرص عليه طالبًا ، وأبو حيان يعترف بأنه جمع اكثر هذه الكتب للناس " ولقلب المثابة منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولمد الجاه عندهم ، فحرمت ذلك كله . ولاشك في حسن ما اختاره الله لى، وتاطه بناصيتى ، وربطه بأمري " . والتوحيدي هنا يصارحنا بحقيقة السبب الذى من أجله سعى وراء الشهرة الأدبية ، وكأنما هو يريد أن ينبهنا إلى عاقبة الطموح الزائف الذي لايتخذ من العلم سوى مجرد مطية للجاه والرياسة.

الثالث: فهو ان ابا حيان لايعرف ولدًا نجيبًا، او صديقًا حبيبًا، او صاحبًا قريبًا، او تابعًا اديبًا، او رئيسًا منيبًا، فليس أشق على نفسه من أن يدع كتبه لقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضه إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوه وغلطه .

السبب الأخير: أن له في إحراق هذه الكتب أسوة بائمة يقتدى بهم، ويؤخذ بهديهم، مثل أبي عمرو بن العلاء الذي دفن كتبه في بطن الأرض فلم يوجد لها أثر، وداود الطائي الذي طرح كتبه في البحر.

كان التوحيدي صوفيًا مؤمنًا يعلم أن الله تعالى " أملك لنواصينا، واطلع على أدانينا وأقاصينا، له الخلق والأمر، وبيده الكسر والجبر، وعلينا الصمت والصبر، إلى أن يوارينا اللحد والقبر "، فلم يكن في وسعه سوى أن يتخلص من كتبه.

إذن فلترحل كتب التوحيدي قبل أن يودع صاحبها الحياة، وليستمتع هو برؤية صفحاتها المتناثرة تلتهمها النيران. وليعلم من لايعلم أن الفكر عابر، والمفكر عابر، وكلاهما مع رياح الموت طائر.

على أننا لانعلم ماذا كان من أمر التوحيدي بعد إحراقه لكتبه عام ٤٠٠هـ..

وفاته :

عمّر التوحيدى طويلاً، إذ مات عن مائة وأربعة أعوام، وقد روى لنا فارس بن بكران الشيرازى – وكان من أصحاب التوحيدى – الساعات الأخيرة من حياة صاحبه فقال: " لما احتضر أبو حيان كان بين يديه جماعة فقالوا: اذكر الله، فإن هذا مقام خوف، وكل يسعى لهذه الساعة، وجعلوا يذكرونه ويعظونه، فرفع رأسه إليهم وقال: كأنى أقدم على جندى أو شرطى، إنما أقدم على رب غفور. وهكذا انتهت حياة ذلك الرجل الذى عاش معذبًا فى دنيا الناس، فقد إيمانه بالإنسان، ويئس من جميع خلق الله، ولكنه ظل مع ذلك مستمسكًا بأهداب الحياة ومتعلقًا بحبل الله .

مؤلفاته :

أورد ياقوت الرومي في كتابه "معجم الأدباء" ثبتًا باسماء بعض كتب أبي حيان، فنص على ثمانية عشر كتابًا هي: (١) الهفوات (٢) الصداقة والصديق (٣) الرد على ابن جني في شعر المتنبي (٤) الإمتاع والمؤانسة (٥) الإشارات الإلهية (٦) الزلفى (٧) المقابسات (٨) رياض العارفين (٩) تقريظ الجاحظ (١٠) مثالب الوزيرين (١١) الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي (١٢) الرسالة في صلات الفقهاء في المناظرة (١٣) الرسالة البغدادية (١٤) الرسالة في اخبار الصوفية (١٥) الرسالة الصوفية (١٦) الرسالة في الحنين إلى الأوطان (١٧) البصائر والذخائر (١٨) المحاضرات والمناظرات.

وهناك كتب أخرى لم يشر إليها ياقوت ، بينما أشار إليها التوحيدي نفسه في ثنايا كتبه، مثل كتاب " النوادر "، وكتاب " الكلام في الكلام ".

وباستطاعتنا أن نضيف إلى هذه القائمة كتبًا اخرى لم نشرها بالفعل، مثل : كتاب "الهوامل والشوامل، "وكتاب" رسالة في العلوم"، وكتاب "رسالة الحياة "، وكتاب" رسالة في علم الكتابة " هذا علاوة على" رسالة الإمامة" (المعروفة برواية السقيفة)، و" المناظرة بين ابي سعيد السيرافي ومتى بن يونس القنائي "(وهي واردة بنصها في الجزء الأول من الإمتاع والمؤانسة)، مما اضطلع بنشره بعض الباحثين في كتب او رسائل قائمة بذاتها . ولا نستبعد ان يكون للتوحيدي كتب أخرى

لم يصل إلينا خبرها ، فقد عُرف عن أبي حيان أنه كان غزير الإنتاج ، حريصا على النقل والرواية ، محبًا للبحث والجدل .

* * *

الباب الثانى
كتاب الصداقة والصديق

أقسام الكتاب
يقسم التوحيدى كتابه إلى مقدمة وستة عشر فصلاً ..

ترى ما هو رأى التوحيدى ذلك الذى أفنى بعض مؤلفاته حرقًا فى واحد من أهم الموضوعات ألا وهو الصداقة ..؟

هل يا ترى يصب جام غضبه على الخلق ..؟

لا .. إنه يقدر الصداقة حق قدرها ، ويدافع عن الصديق دفاع المستميت ..

يفرد التوحيدى لكتابه مقدمة ضافية يذكر فيها هدفه من تأليف كتابه أو رسالته الرائعة ،والسبب في تاليفها ، ولمن ألفها، والمدة التى قطعها في الإعداد لها ثم تحريرها ...

هل تصدقون ، يا أعزائي ، أنه أمضى فى إعداد رسالته هذه وتبييض مسوداتها نحو الثلاثين سنة ؟

ولكن إليكم بيان ذلك ، فقد ذكر ما حدث له كله فى مقدمته للرسالة ...

مقدمة الرسالة

يقول في مقدمة الرسالة :

(كان سبب إنشاء هذه الرسالة في الصداقة والصديق أني ذكرت شيئًا منها لزيد بن رفاعة أبي الخير، فسماه إلى ابن سعدان الوزير أبي عبد الله سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة قبل تحمله أعباء الدولة، وتدبيره إمرة الوزارة حين كانت الأشغال خفيفة، والأحوال على إذلالها جارية، فقال لي ابن سعدان : قال لي زيد عنك كذا وكذا ، قلت : قد كان ذاك قال : فدوِّن هذا الكلام، وصله بصلاته مما يصح عندك لم تقدِّم، فإن حديث الصديق حلو ، ووصف الصاحب المساعد مطرب ، فجمعت ما في الرسالة ، وشغل عن رد القول فيها ، وأبطأت أنا عن تحريرها إلى أن كان من أمره ما كان .

فلما كان هذا الوقت وهو رجب سنة أربعمائة عثرت على المسودة وبيضتها، فإن راقتك فذاك الذي عزمت بنيتي، وحولي، واستخارتي، وإن تزحلقت عن ذلك فللعذر الذي سحبت ذيله وأرسلت سيله) .

كان ذلك هو السبب فى تأليف الرسالة والمدة التى أخرها فيها . . . لكنه يواصل ويبين الغاية او الهدف الذى من أجله أعدها . . . يقول :

(سُمِعَ مني في وقت بمدينة السلام كلام في الصداقة، والعشرة، والمؤاخاة، والألفة، وما يلحق بها من الرعاية والحفاظ، والوفاء، والمساعدة والنصيحة، والبذل، والمواساة، والجود، والتكرم، مما قد ارتفع رسمه بين

الناس، وعفا أثره عند العام والخاص، وسئلت إثباته ففعلت، ووصلت ذلك بجملة مما قال أهل الفضل والحكمة وأصحاب الديانة والمروءة، ليكون ذلك كله رسالة تامة يمكن أن يستفاد منها في المعاش والمعاد ».

ويتعجب التوحيدي من علاقة أستاذه بابن سيار القاضي ...

« قلت لأبي سليمان محمد بن طاهر السجستاني: إني أرى بينك وبين ابن سيار القاضي ممازجة نفسية، وصداقة عقلية، ومساعدة طبيعية، ومؤاتاة خلقية، فمن أين هذا؟ وكيف هو؟ فقال: يا بني اختلطت نفسي به بنفته بي، فاستفدنا طمأنينة وسكونًا لا يزالان على الدهر، ولا يحولان بالقهر، ومع ذلك فبيننا بالطالع، ومواقع الكواكب مشاكلة عجيبة، ومظاهرة غريبة، حتى أنّا نلتقي كثيرًا في الإرادات والاختيارات، والشهوات، والطلبات، وربما تزاورنا فيحدِّثني بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل، فأجدها شبيهة بأمور حدثت لي في ذلك الأوان، حتى كأنها قسائم بيني وبينه أو كأني هو فيها أو هو أنا ».

ثم يورد التوحيدي بعض الأقوال والأشعار في فضل الصداقة ..

« فأما الذي قال في أصدقائه وجلسائه الخير، وأثنى عليهم الجميل، ووصف وجده بهم، ودل على محبته لهم، فغريب قول بعضهم:

أنتم سروري وأنتم مشتكى حزني	وأنتم في سواد الليل سماري
أنتم وإن بعدت عنا منازلكم	نوازل بين إسراري وتذكاري
فإن تكلمت لم ألفظ بغيركم	وإن سكتُّ فأنتم عقد إضماري
الله جاركم مما أحاذره فيكم	وحبي لكم من هجركم جاري

وقال آخر:

أخ لمته أو لامني ثم نرعوى إلى ثائب من حلمنا غير مخدج
أهون إذا عز الجليل وربما أزمت برأس الحية المتمعج

أخبرنا أبو سعيد السيرافي ، قال : أخبرنا ابن دريد قال : قال أبو حاتم السجستاني : إذا مات لي صديق سقط مني عضو . .

كتب علي بن عبيدة الريحاني البصري إلى صديق له : كان خوفي من ان لا ألقاك متمكنًا، ورجائي خاطرًا، فإذا تمكن الخوف طمنيت، وإذا خطر الرجاء حييت .

وقال جعفر بن محمد رضي الله عنهما : صحبة عشرين يومًا قرابة .

وقال رجل لضيغم العابد : اشتهي أن أشترى دارًا في جوارك حتى ألقاك كل وقت. قال ضيغم : المودة التي يفسدها تراخي اللقاء مدخولة .

وكتب آخر إلى صديق له : مثلي هفا، ومثلك عفا . فأجابه : مثلك اعتذر ، ومثلي اغتفر .

وقال اعرابي : الغريب ، من لم يكن له حبيب .

وقيل لأعرابي : من أكرم الناس عشرة ؟ قال : من إن قرب منح، وإن بعد مدح، وإن ظلم صفح، وإن ضويق فسح، فمن ظفر به فقد افلح ونجح .

وقال الفضل بن يحيى : الصبر على أخ تعتب عليه خير من آخر

تستأنف مودته .

وقال عبد الله بن مسعود : ما الدخان على النار بأدل من الصاحب على الصاحب .

وكتب رجل إلى صديق له : أما بعد : فإن كان إخوان الثقة كثيرًا، فأنت أولهم، وإن كانوا قليلاً فأنت أوثقهم ، وإن كانوا واحدًا فأنت هو .
وقال سيف الدولة بن حمدان :

تركت لك القصوى لتدرك فضلها وقلت : ترى بيني وبين أخي فرق
ولم يك بي عنها نكول وإنما توتيت عن حقي فتم لك الحق
ولابد لي من أن أكون مصليا إذا كنت أهوى أن يكون لك السبق

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأكل تمرًا ومعه جليس له، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى حشفة عزلها، فقال جليسه : يارسول الله أعطني الحشفة حتى آكلها، قال: لا أرضى لجليسي إلا ما أرضاه لنفسي .

وقال جعفر بن محمد رضي الله عنهما : لِنْ لمن يجفو، فقلّ من يصفو .

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : قليل للصديق الوقوف على قبره .

كان أبو داود السجستاني أيام شبابه وطلبه للرواية قاعدًا في مجلس، والمستملي في حدته ، فجلس إليه فتى وأراد أن يكتب فقال له: أيها الرجل أأستمد من محبرتك؟ قال: لا، فانكسر الرجل، فأقبل

عليه أبو داود وقد أحس بخجله : أما علمت أن من شرع في مال أخيه بالاستئذان ، فقد استوجب بالخشمة الحرمان ، فكتب الرجل من محبرته ، وسمى أبو داود حكيمًا .

أخبرنا أبو الحسن على بن عيسى ، أخبرنا ابن دريد عن عبد الرحمن عن عمه الأصمعي قال عبد الله بن جعفر : كمال الرجل بخلال ثلاث : معاشرة أهل الرأي والفضيلة ، ومداراة الناس بالمخالقة الجميلة ، واقتصاد من غير بخل في القبيلة ، فذو الثلاث سابق ، وذو الاثنتين زاهق ، وذو الواحدة لاحق ، فمن لم تكن فيه واحدة من الثلاث لم يسلم له صديق ، ولم يتحن عليه شفيق ، ولم يتمتع به رفيق .

قال ابن أبى داود : صديق عدوك حربك (عدوك) .

قال محمد بن على بن الحسين الباقر- رضى الله عنهم- لأصحابه : أيدخل أحدكم يده في كم صاحبه فيأخذ حاجته من الدراهم والدنانير؟ قالوا: لا . قال : فلستم إذًا بإخوان .

قال الخليل بن أحمد : الرجل بلا صديق كاليمين بلا شمال .

وقيل للخليل : استفساد الصديق أهون من استصلاح العدو ؟ قال : نعم ، كما أن تخريق الثوب أهون من نسجه .

وقيل لابن المقفع : الصديق أحب إليك أم القريب ؟ قال : القريب أيضًا يجب أن يكون صديقًا .

مرض قيس بن سعد بن عبادة فابطأ إخوانه عنه، فسأل عنهم، فقيل: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدَّين، فقال: أخزى الله ما يمنع الإخوان من العيادة، ثم أمر مناديا فنادى، ألا من كان لقيس عليه حق فهو منه في حل وسعة، فكسرت درجته بالعشي لكثرة من عاده .

قال عبد الملك بن مروان: من كل شيء قد قضيت وطرًا ، إلا من محادثة الإخوان في الليالي الزُّهر ، على التلال العُفْر .

قال ابو عثمان الجاحظ: كان ابن ابي داود إذا رأى صديقه مع عدوه قتل صديقه. قال ابو حامد المورورذي: هذا هو الإسراف والتجاوز والعداء الذي يخالف الدين والعقل ، لعل صديقك إذا رأيته مع عدوك يثنيه إليك ، ويعطفه عليك ، ويبعثه على تدارك فائتة منك ، ولو لم يكن هذا كله لكان الثاني مقدمًا على العَجَل ، وحسن الظن أولى به من سوء الظن. ثم قال: ذهب الإنصاف في العداوة والصداقة وأصبح الناس أبناءَ واحد في الرغبة والرهبة ، والجهل ، والجبرية ، والعمل على سابق الهوى ، وداعية النفس؛ وهذا لأن الدين مَرْحِيُّ الرَّسَنِ ، مخدوش الوجه، مفقوء العين ، مزعزع الركن ، والمروءة ممزقة الجلباب ، مهجورة الباب ، ليس إليها داع ، ولا لها مجيب ، والله المستعان .

قال ابو الدرداء : معاتبة الأخ خير من فقده ، ومَنْ لك بأخيك كله؟ اطع اخاك ، و لِنْ له ، ولا تسمع فيه قول حاسد وكاشح ، غدا يأتيك أجله فيكفُّك فَقْدُه ، كيف تبكيه بعد الموت وفي الحياة تركت وصله؟

قال بعض السلف : عليك بالإخوان ، ألم تسمع قوله تعالى: (فما

لنا من شافعين ولا صديق حميم).

وأنشدنا الأندلسي :

لي صديق هو عندي عوزٌ ... من سدادٍ لاسدادٌ من عوز

وقال آخر :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه ... والمرء يُصلحه الجليسُ فيصلُحُ

وقال جعفر بن محمد رضي الله عنهما : حافظ على الصديق ولو في الحريق.

أنشد هلال بن العلاء الرقي :

لما عفوت ولم أحقد على أحد ... أرحتُ نفسي من غمّ العداوات

إني أحيي عدوي عند رؤيته ... لأدفع الشر عني بالتحيات

وأظهرُ البشر للإنسان أبغضُهُ ... كأنه قد ملأ قلبي محبّات

والناس داءٌ ، وداءُ الناس قربُهم ... وفي الجفا لهم قطعُ الأخوّات

قرع رجل باب بعض السّلف في ليل فقال لجاريته: أبصري من القارع؟ فأتت الباب فقالت: من ذا؟ قال: أنا صديق مولاك. فقال الرجل: قولي له: والله إنه لصديق، فقالت له ذلك، فقال: والله إني لصديق فنهض الرجل وبيده سيف، وكيس، ويسوق جارية، وفتح الباب وقال: ما شأنك؟ قال: راعني أمر، قال: لا بك ما ساءك، فإني قد قسمت أمرك بين صديق فهذا المال، وبين عدو فهذا السيف، أو مشوق فهذه الجارية تزوجها.

فقال الرجل : لله بلادك، ما رأيت مثلك .

قال العوامي : الصديق يرتفع عن الإنصاف ، ويجل أيضًا عن الهجران ، لأن الإنصاف ينبغي أن يكون عامًا مع الناس كلهم ، وأما الهجر فالعاقل لا يسرع إليه لعدم الإنصاف بل يستأني ، ويقف ، ويكظم ويتوقع ، ويرى أن العارض في الأمر لايزال به الأمر الثابت ، والعِرْق النابت .

قال معاوية : المودة بين السلف ميراث بين الخلف .

قال أبو العتاهية لعلي بن الهيثم : ما يجب للصديق ؟ قال : ثلاث خلال : كتمان حديث الخلوة ، والمواساة عند الشدة ، وإقالة العثرة .

قال عبد الملك بن صالح : مشاهدة الإخوان أحسن من إقبال الزمان ، والذ من نيل الأمان .

قال لقمان : من يصحب صاحب الصلاح يسلم ، ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم .

وقال أيضًا : جالس العلماء ، وزاحمهم بركبتك ، فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء .

كان عامر بن قيس إذا توجه للغزو توسم الرفاق ، فإذا رأى قومًا لهم هدى قال : يا قوم إني أريد أن أصحبكم على ثلاث خلال ، فيقال له : ما هن ؟ قال : أكون خادمًا لكم ، ومؤذنًا بينكم ، وأنفق عليكم . فإذا قالوا : نعم صحبهم ، وإلا تركهم .

قيل لارسطاطاليس الحكيم معلم الإسكندر الملك : مَن الصديقُ؟

قال : إنسان هو أنت، إلا أنه بالشخص غيرك .

سئل أبو سليمان عن هذه الكلمة وقيل له : فسّرها لنا فإنها وإن كانت رشيقة فلسنا نظفر منها بحقيقة، فقال : هذا رجل دقيق الكلام، بعيد المرام، صحيح المعاني، قد طاعت له الأمور بأعيانها، وحضرته بغيبها وشهادتها، وكان ملهَمًا مؤيَّدًا، وإنما أشار بكلمته هذه إلى آخر درجات الموافقة التي يتصادق المتصادقان بها، ألا ترى ان لهذه الموافقة اولاً، منه يبتدئانها، كذلك لها آخر ينتهيان إليه، واول هذه الموافقة تَوَحُّد ، وآخرها وَحْدَة ، وكما ان الإنسان واحد بما هو إنسان ، كذلك يصير بصديقه واحدًا بما هو صديق ، لأن العادتين تصيران عادة واحدة، والإرادتين تتحولان إرادة واحدة .

ولاعجب من هذا ، فقد أشار إلى هذه الغريبة الشاعر بقوله :

روحه روحي ، وروحي روحه إن يشأ شئت، وإن شئت يشا

استعرضت فيما مضى ما أورده التوحيدي في مقدمة رسالته الصداقة والصديق ، والآن إلى ما طرحه الرجل من أقوال وآراء في رسالته الجميلة .

الذين عرض لهم التوحيدى فى كتابه:

وجّه التوحيدي خطابه على لسان تسعة من المبدعين والمفكرين والأدباء والفلاسفة..

لقد آثر الرجل أن يورد ما قاله المفكرون والصوفية ورجال الدين والشعراء والخلفاء ، وحتى بعض الأحاديث لسيد الخلق ، حبيب الحق ، رسولنا العظيم صلى الله عليه وسلم ..

حقا، أورد التوحيدي أقوالاً في الدين، والتصوف، والتاريخ، والشعر، والفلسفة، وما قاله الأعراب فى الصداقة والمودة والإخاء ... ثم سلك ذلك كله فى عقد بديع من اللؤلؤ الصافى ...

مع التصوف :

ذكر عند النبي صلى الله عليه وآله رجل كان يألفه قبل أن يبعثه الله نبيًا يقال له أبو السائب فقال: نعم الصاحب كان أبو السائب لا يمارى ولا يشارى.

سمعت أبا سعيد السيرافي يقول في تفسير هذين الحرفين: أي كان لا يشغب، ولايلج، وقال: قيل في تبذهم الشراة أنهم إنما نبذوا بهذا للجاجهم في دينهم، كما قيل أيضا: إنما تبذوا بهذا الاسم لأنهم باعوا أنفسهم لما سمعوا الله تعالى يقول: "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة".

روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه أنه يحبه، فإن القلوب تتجافى".

وروى أيضًا أنه قال صلى الله عليه وسلم: الأرواح جنود مجندة تتلاقى في الهواء، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ..

قال النبي صلى الله عليه وآله: " تهادوا تحابُّوا ".

وقال الأوزاعي، عن عبدة بن أبي لبابة قال : "إذا التقى المسلمان فتصافحا، وتبسّم كل واحد منهما لصاحبه، تحاتت خطاياهما كما يتحاتّ ورق الشجر فقلت : إن هذا ليسير ، فقال: لا تقل ذاك فإن الله يقول : { لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم } فعلمت

انه أفقه مني ".

قالت عائشة: كنت أرى امرأة تدخل على النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يقبل عليها بحفاوة، فشق ذاك عليّ فعلم ذاك مني، فقال: «يا عائشة هذه كانت تغشانا أيام خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان».

قال أنس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما تحاب رجلان إلا كان أفضلهما أشدهما حبًا لصاحبه، هذا أخبرنا به المرزباني عن ابن السراج عن المبرد عن الرياشي عن أبي عاصم عن مبارك بن فضالة عن ثابت عن أنس ..

قال رجل من العباد لعابد آخر: إني لأحبك في الله، قال: أعوذ بالله ممن يحب في الله، والله عليّ ساخط.

وقد ورد: "مثل الجليس الصالح كمثل الدارى إن لا يجدك من عطره، يعبق بك من ريحه، ومثل الجليس السوء كمثل القَيْن إن لايحرقك بشرره ، يؤذك بدخانه ..

يطلق التوحيدي على الصوفية لقب : أرباب الخدمة والحزمة ... ويورد لهم أقوالاً كثيرة .. يقول :

وأروى هنا بعضًا من كلام أرباب الحذق والخرق فإن فيه فائدة حسنة لا أرى الإضرار عنه والإخلال به.

سمعت ابن السراج الصوفي يقول: قلت لأبي الحسن البوشنجي: من أصحب؟ قال: من يصفو كدرك بصفائه، ولا يكدر صافيك بكدره.

كان ابن الجلاء الزاهد بمكة يقول لأصحابه: اطلبوا خلّة الناس في هذه الدنيا بالتقوى تنفعكم في الدار الآخرى، ألم تسمعوا الله تعالى يقول: { الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين}.

وقال الحرّاني في تصنيف الناس: منهم من هو كالغذاء الذي يمسك رمقك ولابد لك منه على كل حال لأنه قوام حياتك، وزينة دهرك، ومنهم من هو كالدواء يحتاج إليه في الحين بعد الحين على مقدار محدود، ومنهم من هو كالسم الذي لاينبغي أن تقربه فإنه سبب هلكتك.

قال بعض السلف الصالح: خير إخوانك من وعظك برؤيته قبل أن يعظك بكلامه. قلت لبرهان الصوفي: ما تفسير هذا؟ قال: لأنك إذا رأيته رأيت هيأته، وشارته، وحركته، ونظرته، وقومته، وقعدته، وهذه كلها نواطق، ولكن بلا حروف، وشواهد ولكن بلا لفظ، وإشارات ولكن بلا أدوات، وأما إذا جاء الكلام فقد استوعب أقصى البيان، وأتى على آخر الإرادة. فأراد هذا القائل أنه إذا أراك نفسه فقد حضك على اتباع أمره، ودعاك إلى الاقتداء به، وأن تخرج من مسكه، وتبرز من بيانه، فهذا كلام في غاية الإيضاح. قال محمد بن علي رضي الله عنهما: كفى بالله ناصرًا أن ترى عدوك يعصي الله فيك وتطيعه.

قلت لغلام ابن بابويه القمي: من أعاشر؟ قال: من إذا أحسنت قال:

الحمد لله الذى وفق هذا لما أرى، وإذا أساءت قال : الحمد لله الذى لم يَبْلِه بأشد مما أرى .

وقال أبو المتيم الرقي : قلت لابن المولد : من أجلس إليه ، واشتمل بسرى وعلانيتي عليه؟ قال : من إذا لم تكن لنفسك كان لك، وإذا كنت لنفسك كان معك، يجلو صدا جهلك بعلمه، ويحسم مادة غيك برشده، وينفي غش صدرك بنصحه، أصحب من إن قلت صدقك، وإن سكت عذرك، وإن بذلت شكرك، وإن منعت سلّم لك، قلت : يا سيدى من لي بمن هذا نعته ؟ قال : كن أنت ذاك تجدك على ذاك، ويجدك مثلك على ذاك ، كأنك إنما تحب أن يكون غيرك لك ، ولاتحب أن تكون أنت لغيرك .

قيل لبرهان الصوفي : من الصديق؟ قال : يا هذا من يضيع تصفه معدوم عليك فاطلب من يسعك بخلقه، ويؤنسك بنفسه ، ويواسيك من قليله، إن رضى عنك لم يغلظك ، وإن سخط عليك لم يمقتك، يبدي لك خيره لتقتدى به، ويوارى عنك شره لئلا تستوحش منه ، فأما من تكون مثال نفسه في كل حال تلوّن به الدهر ، وهم صدره في كل أمر ، يقلب به الليل والنهار، يقدم حظك على حظه، ولايسارق النظر بلحظه، ولايغالظ القول بلفظه، ولا يتغير لك في غيبه ، ولا يحول عما عهدته في شهادته ، يعانق مصلحتك بالاهتمام، ويثبت قدمك عند الإقدام والإحجام، فذاك شيء قد سدُّ الناس دونه كل باب، وقصر الطمع فيه عن كل قاب، فليس له شبحٌ إلا في الوهم، ولا خيال إلا في التمني والسلام ...

وقلت لجعفر بن حنظلة : من أصحب ؟ قال : أخطات، قل لي من لا أصحب، قلت : فمن لا أصحب ؟ قال : لا تصحبني ولا تصحب من كان مثلي. وما زادني على هذا ولحقني من هذا الكلام كرب وصرف الزمان ، فرأيته بمدينة السلام سنة ثمان وخمسين وهو متوجه إلى الحج فقلت له : أيها الشيخ لقد جرحت سري بكلامك في وقت كذا وكذا ، ولعلك ذاكر مما كان هناك ، قال : أردت بتنفيرك مني إغراءك بي ، وهذا من خدع المشايخ للمريدين .

حدثني ابن السراج الصوفي قال : كنت بالشام عند الروذباري أبي عبد الله، فكتب إلى المهلبي، وكان من مشايخ الشام، كتابًا فيه شوق وعتب يقول في فصل منه : أراحك الله يا سيدي من شوق من لا تشتاق إليه، وعتب من لا تعتابه ، فإنه إذا أجاب هذا الدعاء حرس وقتك لك، وأفرغ بالك عليك، وكنت في زينة حالك ساعيًا، ولحقائق سرك وعلانيتك راعيًا ، ولكن لو رحمت أصدقاءك في شوقهم إليك صنتهم وإياك عن عتبهم عليك، وليس بضائر أن تجعل اهتمامك بهم، وطلوعك عليهم، وتجديدك العهد بمناسمتهم في عرض ما تتقرب إلى الله به إن كان حسنًا أو في جملة ما تستغفر الله منه إن كان قبيحًا.

وبعد فليس كل من أوتي الصبر، وأعين بالجلد، وكان له من نفسه داع إلى الجفاء، ومجيب إلى الهجر، أكمل ذلك كله في البعد عن خلانه، والبراءة من خلصائه، ووالله الذي هو مالك همسنا، والسابح في سرائرنا، لولا أنك أحلى من زلال الحياة إذا طابت، وأطيب من العيشة

إذا لذّت، واعذب من الزلال على الحرّ ، وادب في الضمائر من الخواطر، وأعلق بالعيون من النواظر، ما اهتززنا مشتاقين إليك، ولا انتهينا متهالكين عليك، ولكنك الروح، والصبر عن الروح معوز، والحياة والبقاء مع فقد الحياة معجز، فإن فاء بك رأيي في الانكفاء إلى احداق طامحة نحوك، وهمم طائحة في الوجد بك، ومجالس خضرة نضرة باحاديثك، ومسامع صاغية إلى لذيذ لفظك، وشهى حدك وهزلك، فتصدق علينا بنفسك إن الله يجزي المتصدقين ..

حدثنا العسجدي قال: جاء رجل إلى ابي إسحاق الكسائي ليلاً فقال: ما جاء بك ؟ قال: ركبني دين، قال: كم هو ؟ قال : اربعمائة درهم ، فأخرج كيسًا فاعطاه ، فلما رجع عنه بكى فقال له أهله: ما يبكيك ؟ قال : بكاى اني لم ابحث عن حاله والجاته إلى الذل، قال ابن السماك الواعظ: الحسد الأم الطبائع، فمن ثم وكل بالأقرب فالأقرب، واعلم أن العدو يعود بالملاطفة صديقًا، والظالم بالإنصاف محسنًا، والعاتب بالعتبى حبيبا، والحاسد بمنزلة البغل الشموس يطيعك في تناول مراده، ويكلفك أرضًا بعيدة الطلب، يدنيه منك سوءُ الطمع، ويبعده عنك سوء الطبع ...

قال الحسن بن ابى الحسن البصرىّ: من وجد دون اخيه سترًا فلا يكشفه.

وقال: رب أخ لك لم تلده أمك.

وقال: الإخوان إخوان الثقة، وإخوان المكاشرة، فإخوان الثقة أهل

بسط الكف، ولين الجناح، وهم أقل في الناس من الكبريت الأحمر، وإخوان المكاشرة أبذل لهم حلاوة المنطق، وطلاقة الوجه. وإذا كنت من أخيك على ثقة فابذل له نفسك ومالك ، وصاف من صافاه ، وعاد من عاداه ..

وقال علي بن حماد: قال الحسن : مثل الصاحب مثل الرقعة في القميص ، فلينظر المرءُ بأي شيء يرقعه. وقال: إن المؤمن شعبة من المؤمن، يحزن لحزنه ويفرح لفرحه ، وهو مرآة أخيه، إن رأى منه ما لا يعجبه قومه وسدده، ووجّهه، وحاطه في السر والعلانية . إن لك من خليطك نصيبًا، وإن لك نصيبًا من ذكر من آخيت، فاختاروا الإخوان والأصحاب والمجالس.

كتب أحمد بن صالح إلى صديق له: وصل كتابك مخبرًا بعافيتك، مبشرًا بسلامتك، مذكرًا بلذيذ عشرتك، وطيب إلفتك، ناطقًا بصحيح ودك وكريم عهدك، وإني لآنس بذكرك، فضلاً عن مكاتبتك، وبمكاتبتك فضلاً عن رؤيتك، إلا أني في ذلك كما قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي :

إنّ ما قلّ منك يكثُرُ عندي وكثيرٌ من الحبيب قليلُ

وقال الحسن بن مسلم: زاد الله من عمري في عمرك ، ورفعك إلى الدرجة الموازية لقدرك، وضاعف الكرامة والنعمة والسعادة لك، وقدّمك في المحبوب قبلي، وقدّمني للمحذور قبلك، وجعلني الله فداءك وإن كنت آنس بك في الحول وقتا ، واعتبر في بقيته خلوا مستوحشا،

فإن موقع وقتك عندي منه، كموقع ربيعه من سائر شهوره؛ لما يبهجني من السرور بك ، ويونق بصري من بهي منظرك ، ويرتع فيه لُبيّ من رياض علمك وأدبك، ويجدد لي من يوانع فؤادك، وملذوذ ثمار ودك، ما يروق به الربيع العيون من بهيج زينته ، ويجود به على الأرض من غيوثه، ويلبسها من زخارفه ، وينشر عليها من موشي حلله، ويملأها جوانبها من خصبة وبركته، وأشبه مغيبك – جعلت فداك – بأضداد هذه الصفات، غير أني أحيا بالتذكر والرجاء مدى النأي إلى اللقاء، وأجد عقلي بما أفدت في ساعة منك متقوتًا زمنًا طويلاً كقول أنوشروان الملك: قوت العقول الحكم ، وقوت الأجساد المطعم، فلا زلت من نورك مقتبسًا ولإخوانك في القرب والبعد مؤنسًا، ولا زالت الأقدار تسعفنا فيك ببلوغ أمل، ودنو محل، حتى تطول العشرة، وتدوم الغبطة والمسرة..

* * *

مع الفلاسفة :

قيل لديوجانيس : ألك صديق ؟ قال : نعم ، ولكني قليل الطاعة له. قيل : لعله غير ناصح فلذلك أنت على ذلك. قال : بل هو غاية في النصح، نهاية في الشفقة ، قيل : فلمَ أنت على دأبك هذا المذموم مع إقرارك بفضل صديقك؟ قال : لأن جهلي طباع ، وعلمي مسكوب، والطباع سابق، والمكسوب تابع . قيل : فدلنا على صديقك هذا الناصح المشفق حتى نخطب إليه صداقته – ونجتهد في الطاعة له والقول منه، قال : صديقي هو العقل، وهو صديقكم أيضًا، ولو أطعتموه لسعدتم ورشدتم، ونلتم مناكم في أولاكم وأخراكم، فأما الصديق الذي هو إنسان مثلك فقلما تجده، فإن وجدته لم يف لك بما يفي به العقل، ولم يبلغ بك ما يبلغ العقل، وربما أتعبك، وربما خربك، وربما أشقاك، فاكبحوا أعنتكم عن الصديق الذي يكون من لحم ودم وعظم، فإنه يغضب فيفرط، ويرضى فيسرف، ويحسن فيعدد، ويسيء فيحتج، ويشكك فيضل ...

قال الشاعر :

أخي لن تستفيد الدهر مثلي شريكًا في الحياة وفي الممات
أتتركني وأنت ترى مكاني وتطلبني إذا حانت وفاتي
فليس بنافعي طلبٌ بثأري وأخذك من بغاتي بالتِّرات
فإن أهملتني وطرحت حقي عليك فلا تغافل عن وصاتي
بنيّ إذا هلكتُ فلا تُضعْهم وصُنْ – عمن يعاديني - بناتي
فلو كنت الأسيرَ ولا تَكنْهُ عزمت على حياتك لي حياتي

قال ديوجانس للإسكندر لما ملك : أيها الملك ، إني إلى اليوم كنت أخًا، وأنا اليوم تابع وشتان بين الأخ والتابع ، فقال الإسكندر : الأخوة قبل اليوم كانت أنعم بك، وهذه الحال اليوم أرفع لك، وإذا كنت تياطنني على ما عهدناه قديمًا لم يضرك أن يكون تظاهرك على ما نستديم به أنسنا حديثًا ..

قيل لديوجانس: ما الذى ينبغى للمرء أن يتحفظ منه ؟ قال: من حسد إخوانه، ومكر أعدائه ..

وقال أفلاطون : الأشرار يتتبعون مساوئ الناس ، ويتركون محاسنهم، كما يتتبع الذباب المواضع الفاسدة من الجسد ويترك الصحيح..

وقيل لأباريتوس: ما لفلان أعرض عنك؟ فقال: ما أشبه إقباله بإدباره، ومن زعم أنه يضرنى فلينقع نفسه.

وقيل لثيفابون : من صديقك؟ قال : الذي إذا صرت إليه فى حاجة، وجدته أشدّ مسارعة إلى قضائها منى إلى طلبها ..

وقال أنكساغورس : إن الشدائد التى تنزل بالمرء محنة إخوانه ..

وقال أفلاطون : لاينبغى للعاقل أن يتمنى لصديقه الغنى فيزهى عليه، ولكن يتمنى له أن يساويه فى الحال .

قال أفلاطون : صديق كل امرئ عقله ، وعدوّه جهله .

قال سقراط : لاتكون كاملاً حتى يأمنك عدوّك، فكيف بك إذا

كنت لا يأمنك صديقك.

وقال أفلاطون: عمر الدنيا أقصر من أن تطاع فيها الأحقاد ..

قال الشاعر:

والعمر أقصر مدةً   منْ أن يُكَدّرَ بالعتاب

وقال أفلاطون: إذا صحبت حازمًا فأرضه في إسخاط حاشيته، وإذا صحبت أحمق فاسخطه في رضا حاشيته ..

وقال آخر: خير الأصحاب من ستر ذنبك فلم يُقَرِّعْك، ومعروفه عندك فلم يمتن عليك ..

وقال آخر: اجتنب مصاحبة الكذّاب، فإن اضطررت إليها فلا تصدقه، ولا تعلمه أنك تكذبه فينتقل عن وذك ولا ينتقل عن طبعه ..

وقال فيلسوف آخر: حسبك من عدوّك كونه في قدرتك .

وقال فيلسوف آخر: لا تقطع أحدًا إلا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه، ولا تتبعه بعد القطيعة وقيعةً فيه فينسد طريقه عن الرجوع إليك، فلعل التجارب ترده إليك، وتصلحه لك ..

وقال فيلسوف آخر: لايزال الإخوان مسافرين في المودة حتى يبلغوا الثقة فتطمئن الدار، ويقبل وفود التناصح، وتؤمن خبايا الضمائر، وتلقى ملابس التخلق، ويحل عقد التحفظ ..

وقال فيلسوف آخر: إخوان السوء ينصرفون عند النكبة، ويقبلون مع النعمة، ومن شأنهم التوسل بالإخلاص والمحبة إلى أن يظفروا بالأنس والأمن والثقة ثم يوكلون الأعين بالأفعال، والأسماع بالأقوال، فإن رأوا خيرًا ونالوه لم يذكروه ولم يشكروه، وإن رأوا شرًا أو ظنوه أذاعوه ونشروه، فإن أدمت مواصلتهم فهو الداء المعضل المخوف على المقاتل، وإن استرحت إلى مصارمتهم ادّعَوْا الحيرة بك لطول العشرة لك، فكان كذب حديثهم مصدقًا، وباطلهم محققًا ..

وقال ثامسيطيوس: الإنسان بلا أصدقاء كالشمال بلا يمين ..

وقال أرسطوطاليس: أخلص الإخوان مودة من لم تكن مودته عن رغبة ولا رهبة.

وقال هرمس: القرابة تحتاج إلى المودة ، والمودة لاتحتاج إلى القرابة...

وقال سقراط: مما يدل على عقل صديقك ونصيحته أنه يدلك على عيوبك، وينقيها عنك، ويعظك بالحسنى، وينعظ بها منك، ويزجرك عن السيئة، وينزجر عنها لك .

قيل لفيلسوف: من تحب أن تصادق ؟ فقال: أما في الدهر الصالح فالحسيب، اللبيب، الأديب؛ فإنك تستفيد من حسبه كرمًا، ومن أدبه علمًا، ومن لبه رأيًا، وأما في الزمان السوء فارض بالمكاشر الذي يعطيك بعضه بالحياء، وبعضه بالنفاق، ويمتنع ظاهره، وإن ساءك باطنه، ولكل زمان حكم ولكل ظَهْرٍ عِكَم .

قال أرسطوطاليس: تعهد الإخوان بإحياء الملاطفة؛ فإن التارك متروك ثم تعهد إخوان الإخوان، فإن إخوان الإخوان من الإخوان، وهم بمنزلة العلم المستدّل على الوفاء، ثم تعهد أهل المكاشرة المتشبهين بالإخوان بالصبر عليهم، إما طمعا في تحويل ذلك منهم صدقًا، وإما اتقاء كلمة فاجر وقعت في سمع مائق ذي دولة.

* * *

مع الخلفاء وأرباب السياسة :

قال يحيى بن أكثم: كنت أرى شيخًا يدخل على المأمون في السنة مرة، وكان يخلو به خلوة طويلة ثم ينصرف فلا نسمع له خبرًا، ولا نرعى له أثرًا ، لانقدم على المسألة عنه فلما توفى قال لنا المأمون : واأسفا على فقد صديق مسكون إليه، موثوق به، يلقى إليه العجر والبجر ويقتبس منه الفوائد والغرر، قلنا: ومن ذاك يا امير المؤمنين؟ قال: أما كنتَ ترى شيخًا يأتينا في الفرط، ونخلو به من دون الناس؟ قلت: بلى، قال: فإنه قد تأخر عن إبانه، وأظن أنه قد قضى ، قلت: الله يمد في عمر امير المؤمنين، وما في ذلك ؟ قال: كان صديقي بخراسان، وكنت أستريح إليه استراحة المكروب، وأجد به ما يوجد بالولد البار المحبوب، ولقد كنت أستمد منه رأيًا أقوم به أود المملكة، وأصل به على رضا الله في سياسة الرعية، وآخر ما قال لي عند وداعه أن قال: يا امير المؤمنين إذا استشن ما بينك وبين الله تعالى فابلله، قلت: بماذا يا صاحب الخير؟ قال: بالاقتداء به في الإحسان إلى عباده، فإنه يحب الإحسان على عباده كما تحب الإحسان إلى ولدك من حاشيتك، والله ما اعطاك القدرة عليهم إلا لتصبر على إحسانك إليهم بالشكر على حسناتهم، والتغمد لسيئاتهم ، وأي شيء أوجه لك عند ربك من أن يكون امامك إمام عدل وإنصاف، وإحسان ، وإسعاف، ورأفة، ورحمة، ومن لي يا يحيى بمثل هذا القائل؟! وأنى لي بمن يذكرني بما أنا إليه صائر ؟

حدثني أبو حامد العلوي، وكان من الحجاز، سنة سبعين وثلاثمائة بمدينة

السلام قال: رمى أعرابي من بني هلال عن حيه إلى أطراف الشام فقيل له: من خلفت وراءك؟ قال: خلفت والدًا ووالدة وأختًا وابن عم وبنت عم عشيقًا وصديقًا، قيل له: فكيف حنينك إليهم؟ قال: أشد حنين. قيل: فصفه لنا ؟ قال: أما حنيني إلى والدي فللتعزز به، فإن الوالد عضد وركن يعاذ به، ويؤوى إليه، وأما نزاعي إلى الوالدة فللشفقة المعهودة منها ولدعائها الذي لا يعرج إلى الله مثله، وأما شوقي إلى الأخت فللصيانة لها، والتروح إليها، وأما شوقي إلى ابن العم فللمكانفة له والانتصار به ، وأما ابنة العم فلأنها لحم على وضم أتمنى أن أشبل عليها بالرقة، أو أصلها ببعض من يكون لها كفؤًا ، ويكون لنا إلفًا، وأما صاحبتي بالعشيق فذاك شيء أجده بالفطرة والارتياح الذي قلما يخلو منه كريم له في الهوى عرق نابض، وفي المجون جواد راكض .. وأما الصديق فوجدي به فوق شوقي إلى كل من نعته لك ؛ لأني أبائه بما أجلّ أبي عنه، وأجبأ من أمي فيه وأطويه عن أختي خجلا منها، وأداجي ابن عمي عليه خوفًا من حسد يقفأ ما بيني وبينه، وأكني عن بنت عمي بغيرها؛ لأنها شقيقة ابن العم، ومعها نصف ما معه، وهي من الشجرة التي تلفنا أغصانها، وتلتقي علينا أفنانها ويجمعنا ظلها. فأما العشيقة فقصاري معها أن أشوب لها صدقًا بكذب، وغلظة بلين؛ لأفوز منها بلحظ من نظر، ونصيب من زيادة، وتحفة من حديث، وكل هؤلاء مع شرف موقعهم مني، وانتسابهم إلى دون الصديق الذي وسارحني عنده مراح، أرى الدنيا بعينه إذا رنوت، وأجد قائمتي عنده إذا دنوت، إذا عززت به ذل لي، وإذا ذللت له عز لي، وإذا تلاحظنا تساقينا كأس المودة،

وإذا تصامتنا تناجينا بلسان الثقة ، لايتوارى عني إلا حافظًا للغيب، ولا يتراءى لي إلا ساترًا للعيب ..

كتب عبد الله بن العباس بن الحسن العلوي إلى صديق له: أما بعد فمثل إعظامي إياك دعا إلى الانقباض عنك ، ومثل ثقتي بك دعا إلى الانبساط إليك، فلما تكافأ هذان في نفسي كان أملكهما بي، وأولاهما بالأثرة عندي أقربهما إلى موافقتك وأوقعهما بمحبتك ..فعلمت أن اسر إخوانك لك أفزعهم عند الملمات إليك وأوثقهم عند حوادث الامور بك، ثم شفع ذلك عندي ما يدعو إليه المرء نفسه، وينازعه نحوه من الطلب، ويثقل عليه المؤونة فيدمن الإمساك ..

وكتب غسان بن عبد الحميد المدني إلى جعفر بن سليمان الهاشمي يعاتبه: بلغني أن غاشًا ظالمًا أتاك بأمر لم أكن له أهلاً، ولم تكن بقبوله خليقًا؛ لأنني لم أكن بأشباهه معروفًا، ولم تكن على استماع مثله مخوفًا، فوجد فيك مساغًا، وعندك مستقرًا، وكنت أحسب منازل إخوانك عندك، والثقة لهم منك في حصن حصين ومحل مكين، لاتناله أكاذيب الكاذبين، ولا أقاويل المقترين، وذلك أن الكاذب كان بالتهمة على في منزلي وحرمتي أحق مني بالتهمة على رأيي وخلقي، وأنا كنت عندك بالثقة في وفائي أحق منه بالتصديق في عضيهته إياي، فإن الاخ المخبور أولى بالثقة من الساعي بالكذب والزور ، وإذا كان تحافظ الإخوان إنما هو معلق بأيدي السفهاء إذا شاءوا سعوا، فقبل قولهم، فكيف تبقى على ذلك أخوة أو ترعى حرمة ؟.

كتب المهلبي الوزير إلى أبي الفضل العباس بن الحسين :

إني – حفظك الله وحفظني لك ، وأمتعك بي وأمتعني بك– قد بلوتك طول أيام أبي جعفر – قدس الله روحه – فوجدتك ذا شهامة فيما يناط بك ، حسن الكفاية فيما يوكل إليك ، كتومًا للسر إذا استحفظته، حسن المساعدة فيما يجمل بك الوفاق عليه، وقد حدا بي هذا كله على اجتبائك، وتقريبك، وإدنائك وتقديمك، وغالب ظني أنك تعينني على ذلك بميمون نقيبتك، ومأمون ضريبتك، وجعلت دعامة هذا كله أني أجريك مجرى الصديق الذي يفاوض في الخير والشر، ويشارك في الغث والسمين، ويستنام إليه في الشهادة والغيب، ولي معك عينان، إحداهما مغضوضة عن كل ما ساءني منك، والأخرى مرفوعة إلى كل ما سرني فيك، فإن كنت تجد في نفسك على قولي هذا شاهدًا صدوقًا، وإمارة نطوقًا، فعرفني لأعلم أن فراستي لم تفل، وحدسي عن طريق الصواب لم يمل، والحال التي قد جددها الله لي هي محروسة لك ومفرغة عليك ومستقلة بك فأشركني فيها بخالصة الوفاء، أو تفرد بها إن شئت بحقيقة الصفاء ، فلك الأمنة من حيلولة الاعتقاد، والسكون إلى عفو الاجتهاد، وثق بأن الذي خطبته منك إنما أريده لك، فلا يقعن في وساوس صدرك أن لكاشح لنا فيما نحن عليه طريقا لنقض، أو يحسب لنا فيه بابًا إلى الزيادة.

واكتف بهذا القدر الذي دللتك عليه، واستقبل أمري وأمرك بالذي أرشدتك إليه، وإياك أن تستشير فيه غير نفسك فإنك بعرض حسد

يكون عقالاً لحظك، والله يهديك للحسنى، ويقيني فيك غوائل العيون المرضى والسلام.

قلت للنفري: فبماذا أجابه؟ قال: من له بجواب في هذا السبك على هذه الحلاوة.

سمعت العوامي يقول لعلي بن عيسى الوزير: إن الحال بينك وبين ابن مجاهد صفيقة فما الذي قربه منك ونفقه عليك وأولعك به؟ قال: وجدته متواضعًا في علمه، هشًا في نسكه، كتومًا لسره، حافظًا لمروءته، شفيقًا على خليطه، حسن الحديث في حينه، محمود الصمت في وقته بعيد القرين في عصره، والله لو لم يكن فيه من هذه الأخلاق إلا واحدة لكان محبوبًا ومقبولاً.

وقال أبو بكر: خير إخوانك من اساك، وخير منه من كفاك، وخير مالك ما اغناك، وخير منه ما وقاك.

قال المأمون الخليفة: من لم يؤاس الإخوان في دولته خذلوه في شدته، وقال:

لاأعرفنك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي

قال عبد الله بن جعفر لصديق له: إن لم تجد من صحبة الرجال بدًا، فعليك بصحبة من إذا صحبته زانك، وإن حققت له صانك، وإن احتجت إليه مانك، وإن رأى منك خلة سدها، أو حسنة عدها، وإن وعدك لم يحرضك، وإن كبرت عليه لم يرفضك، وإن سألته أعطاك، وإن أمسكت عنه ابتداك.

كتب عمر بن الخطاب إلى سعد: إن الله إذا أحب عبدًا حببه إلى خلقه، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس، واعلم أن ما لك عند الله مثل ما لله عندك.

وقالوا: إذا أحب الله عبدًا ألقى مودته على الماء فلم يشرب منه أحد إلا أحبه، وإذا أبغض الله عبدًا ألقى بغضه على الماء فلم يشرب منه أحدًا إلا أبغضه.

قلت لابن برد الأبهري وكان من غلمان ابن طاهر: من الصديق؟ قال: من سلم سره لك، وزين ظاهره بك، وبذل ذات يده عند حاجتك، وعف عن ذات يدك عند حاجته، يراك منصفًا وإن كنت جائرًا، ومفضلاً وإن كنت ممانعًا، رضاه منوط برضاك، وهواه محوط بهواك، إن ضللت هداك، وإن فلمشت أرواك، وإن عجزت آداك، يبين عنك بالجسم والرسم، ويشاركك في القسم والوسم.

قلت: أما الوصف فحسن، وأما الموصوف فعزيز.

قال: إنما عز هذا في زمانك حين خبثت الأعراق، وفسدت الأخلاق واستعمل النفاق في الوفاق، وخيف الهلاك في الفراق، والله، لقد شاهدت لشيخنا ابن طاهر أصدقاء ينطوون له على مودة أذكى من الورد والعنبر، إذا لحظهم بطرفه تهللوا، وإذا ناقلهم بلفظة تدللوا، وإذا تحكم عليهم تعجلوا، وإذا أمسك عنهم تولوا وخولوا، وكانوا يجدون به ما لا يجدون بأهليهم وأولادهم رحمة الله عليهم، فلقد كانوا زينة الأرض،

فى كل حال من الشدة والخفض، وإنى لأذكرهم فأجد فى روحي عبقًا من حديثهم .

قلت : كيف كان انبساطهم في الاجتماع ؟ قال : ما كانوا يتجاوزون الليلة الحلوة والمزح الخفيف، واللفظ اللطيف، والرمز الرشيق والتبسم المقبول، وإذا افترقوا فإنما هم فى اهتمام يعود بنظام عيشهم، وتدوم لهم مسرة حياتهم الكلمة، الكلمة واحدة، والطريقة واحدة، والإرادة واحدة، والعادة واحدة، والوحدة إذا ملكت الكثرة نفت الخلاف .

* * *

مع الكتاب والمفكرين:

قال ابو يعقوب : دخلنا على ابي المطيع القرباني نسأله الحديث فقدم إلينا طعامًا فامسكنا عنه فقال : يا هؤلاء كانت المواساة بين الإخوان قبلنا بالضياع، والرباع، والبراذين، والمماليك، والدور والبدور فصارت اليوم إلى هذا وهو مروءتنا، فإن امسكتم عن هذا أيضًا ذهب هذا القدر، وماتت سنة السلف فلا تفعلوا ، فاقبلنا عليه واكلنا ..

روى عن الأصمعي: دخلت على الخليل وهو جالس على حصير صغير فقال: تعال واجلس، فقلت: أضيق عليك، فقال: مه فإن الدنيا بأسرها لاتسع متباغضين وإن شبرًا في شبر يسع متحابين ..

قال بعض السلف : ضربة الناصح خير لك من تحية الشانئ، ولا فضل للمرائي بالود على مظهر الشنآن ..

قال ابو جعفر الشاشي : قد اصاب في الكلمة الاولى ، فأما في الكلمة الثانية فهو مقصر، لأن المرائي له ظاهر يحمد وإن كان له باطن يذم ، وليس كذلك مظهر الشنآن ، فإنه ليس له باطن يحمد، ولا ظاهر يقبل، فقد بان فضل المرائي بالود على صاحبه. والمرائي قد يبلغ لك كثير من محابك، والرياء ستر سايغ، وليس بينه وبين الإخلاص إلا عقد نية، وضمير نقص، وصدق تخيب، وصلاح سر ..

وسمعت ابن شاهين يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : استعيذوا بالله من شرار الناس، وكونوا من خيارهم على حذر ..

كتب الحرائي إلى صديق له :

إن كان ذهولك عن الدنيا اخضلت، وهطل عليك سماؤها، وأربت بك ديمها ، فإن أكثر ما يجري في الظن بك، بل في اليقين منك، أملك ما يكون لغنانا أن يجمح بك ، ولنفسك أن تستعلي عليك، إذ لانت لك اكنافها، وانقاد في كفك زمامها، لانك لم تنل ما نلته خطفًا وخلسًا، ولا عن مقدار ازحف إليك غير حقك، وأمال إليك سوى نصيبك، فإن ذهبت إلى أن حقك قد يحتمل في قوة وسعته أن يضاف إليه الجفوة والنبوة ، فيتضاءل في جنبه ويصغر عن كبيره، فغير مدفوع عن ذلك، وايم الله لولا ما منيت به النفس من الضن بك، وأن مكانك منها لايسده غيرك لتنحيت عنك، وذهلت عن إقبالك وإدبارك، ولكان في خفائك ما يكسر من غربها، أويبرد من غليلها ولكنه كما تكاملت النعمة لك تكاملت الرغبة فيك ..

قال بشار :

ربما يَثْقُلُ الجليسُ وإن كا ن خفيفًا في كَفَّة الميزان

إليكم يا أعرائي نصًا يهاجم فيه التوحيدي من ينكرون الصداقة، ويذمون الصديق ... يقول :

قال القرباني محمد بن يوسف: قلت للثوري: إني أريد الشام فأوصني. قال: إن قدرت أن تذكر كل من تعرف فافعل، وإن استطعت أن تستفيد مائة أخ، حتى إذا خلصوا لك تسقط منهم تسعة وتسعين، وتكون في الواحد شاكًا فافعل ..

قد تشدد هذا الشيخ كما ترى، ولست ارى هذا المذهب محيطًا ولا معلقا بالصواب ، ولا داخلا في الإنصاف ، فإن الإنسان لايمكنه ان يعيش وحده ، يستوى له ان يأوي إلى المقابر، ولابد له من اسباب بها يحيا ، وبأعمالها يعيش ، فبالضرورة ما يلزمه ان يعاشر الناس، ثم بالضرورة ما يصير له بهذه المعاشرة ، بعضهم صديقًا ، وبعضهم عدوًا، وبعضهم منافقًا ، وبعضهم نافعا، وبعضهم ضارا، ثم بالضرورة يجب عليه ان يقابل كل واحد منهم بما يكون له من دين، أو عقل، أو فتوة، أو بُعدة ، ويستفيد هو من ذلك كله ما يكون خاصًا به، وعائدًا بحسن العقبى عليه ، إما في العاجل ، وإما في الآجل ، ولعزة الحال في وجدان الصديق، وتعذر السلامة على القريب والبعيد، قال القائل :

كن لثغر البيت حلسا ... وارض بالوحدة أنسا
واغرس الناس بأرض الز ... هد ما عُمّرت غرسا
وليكن يأسك دون الط ... مع الكاذب ترسا
لست بالواحد حرا ... أو ترد اليوم أمسا
ما وجدنا أحدًا سا ... وى على الخيرة فلسا

قال علي بن عبيدة: إنه لادواء لمن لاحياء له، ولاحياء لمن لاوفاء له ، ولا وفاء لمن لا إخاء له، ولا إخاء لمن يريد ان يجمع هوى اخلائه له حتى يحبوا ما أحب، ويكرهوا ما كره، وحتى لا يرى منهم زللاً ولا خللاً ..

بعث النضر بن الحارث إلى صديق له بعبادان بنعلين مخصوفتين وكتب إليه: إني بعثت بهما إليك، وأنا أعلم انك عنهما غني، لكني

أحببت أن تعلم أنك منى على بال والسلام ..

فأجابه: ما أنا بغنى عن برك الذى يحثنى على شكرك، ويخرطنى فى سلكك، ويزيدنى بصيرة بزيادة الله عندك ومحبتك لأن أعلم أنى منك على بال، ويقينى بذلك راسخ، وحمدى عليه غاد ورائح، لا عدمتك لى أخًا بارًا ولا عدمتنى لك قائلاً سارًا ..

قلت للهائم ابى على: من تحب أن يكون صديقك ؟ قال: من يطعمنى إذا جعت، ويكسونى إذا عريت، ويحملنى إذا كللت، ويغفر لى إذا زللت، فقال له على بن الحسين العلوى: أنت إنما تريد إنسانًا يكفيك مؤونتك ويكفلك فى حالك، كأنك تمنيت وكيلا فسميته صديقًا، فما أحار جوابًا ..

وقلت للبنوى ولقيته بالدسكرة : من تحب ان يكون صديقك؟ قال: من يقيلني إذا عثرت، ويقومني إذا ازورررت، ويهدينى إذا ضللت، ويصبر علىّ إذا مللت، ويكفينى مالا أعلم وما علمت ..

وسمعت ابا عامر النجدى يقول: الصديق من صدقك عن نفسه ليكون على نور من أمرك، ويصدقك أيضًا عنك لتكون على مثله؛ لأنكما تقتسمان أحوالكما بالأخذ والعطاء فى السراء والضراء، والشدة والرخاء، فليس لكما فرحة ولا ترحة، إلا وأنتما تحتاجان فيهما إلى الصدق والانكماش، والمساعدة على اجتلاب الحظ فى طلب المعاش ..

وقال أيضًا : قيل لأعرابى: أنك صديق ؟ قال : لا، ولكن اليف.

أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن علي الهجيمي قال: حدثنا أبو داود الطائي قال: جاء رجل إلى حماد بن زيد فقال له: يا أبا سعيد اطلب لي رفيقًا إلى مكة، ما بيني وبينه سنة، فلما جاء الحول جاء رجل إلى حماد فقال: أنا أطلب رفيقًا إلى مكة منذ سنة فجمع بينهما، فمضيا إلى ابن عون فودعاه وقالا له: أوصنا، قال: أوصيكما بخصلتين، قالا: وما هما؟ قال: كظم الغيظ، وبذل المال، قال: فأتى أحدهما في منامه أن ابن عون أهدى لهما حلتين ..

قيل لابن المقفع: بأي شيء يعرف الأخ؟ قال: أن ترى وجهه منبسطًا، ولسانه بمودته ناطقًا، وقلبه ببشره ضاحكًا، ولقربه في المجلس مجيبًا، وعلى مجاورته في الدار حريصًا، وله فيما بين ذلك مكرمًا ..

قال أبو سعيد السيرافي فيما سمعته منه: الصديق يكون واحدًا وجمعًا مذكرًا أو مؤنثًا. قال المرواني وكان حاضرًا: هذا والله من شرف الصديق. قلت: ما نزيغ بهذا، قال: أما ترى هذا المثال كيف عم الأشياء المختلفة حتى تكون صورة الصديق محفوظة فيها، وملحوظة منها؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿ أو صديقكم ﴾ فأخرجه مخرج الواحد، وهو يريد الواحد والجمع والمذكر والمؤنث.

أخبرنا أبو السائب القاضي عتبة بن عبد الله، حدثنا الحسن بن عروة، حدثنا محمد بن عبد الله القرشي، حدثنا محمد بن عبد الله الأشكري عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر- رضي الله عنهما- قال: أوصاني أبي قال: يا بني لاتصحب فاسقا فإنه

بائعك باكلة فما دونها ، قلت : وما هو دونها؟ قال : يطمع فيها ثم لا ينالها، ولا تصحب بخيلاً فإنه يطمع بك في مالك أحوج ما تكون إليه، ولا تصحب كذابًا فإنه بمنزلة السراب يقرّب منك البعيد، ويبعد منك القريب، ولا تصحب أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، ولا تصحب قاطع رحم فإني وجدته ملعونًا في ثلاثة مواضع من كتاب الله : في سورة البقرة وسورة الرعد وسورة الذين كفروا .

كتب ابو النقيس إلى العبادانى : سبحان من لم يغنك عنا حتى سلانا عنك ، ولا شغلك بغيرنا حتى عوضنا منك، ولا خار لنا في بعدك، حتى صنع لنا في فقدك، ولا هوّن عليك الوجد بنا حتى خفف عنا الموجدة عليك، ولا حظر عليك وصلنا حتى اباح لنا هجرك، ولاسهل عندك الزراء بنا حتى رفع عنا المصيبة فيك.

وكتب ايضًا : الحمد لله الذي لم يزين لك الكفر بحرمتنا حتى حسن عندنا الشرك في صحبتك، ولاطوى عنا بساط قربك حتى اسبل علينا سجاف بعدك، ولا علق حبلك بغيرنا حتى كفانا مؤونة عتبك، ولا خوفك بالرغبة عنا حتى امننا بالزهد فيك، ولا دنس جبيك بالأسف علينا حتى طهر قلوبنا من الشوق إليك، ولاسقاك صفو الهجر حتى أروانا بزلال الصبر، ولا اوسع لك في الانحراف عنا حتى اوضح لنا العذر في الانصراف عنك، ولا اذكرك قبح الجفاء حتى انسانا خالص الصفاء، ولا عراك من يمن الإجماع حتى البسنا عبرة الإفراق، فدم على هجرنا فقد استبدلنا بك واسْلُ عنا فقد تعزينا عنك والسلام ..

لبني هذيل مثل وهو: هذا التصافي، لا تصافي الحلب، أصله أن هذيلاً أصابت دمًا في بعض العرب فأسر أصحاب الدم رجلين من هذيل متصادقين، فقالوا لهما: أيكما أشرف فنقتله بصاحبنا؟ فقال كل واحد منهما: أنا ابن فلان الحسيب النسيب، ذي الثأر المنيم، فاقتلوني دون صاحبي، فكل بذل نفسه للقتيل دون صاحبه، فعيوا بأمرهما لما رأوا من تأبيهما فقالوا: هذا التصافي ، لا تصافي الحلب، وصفحوا عنهما، أي لا تصافي المنادمة على الشراب ..

قال كاتب: إنما سمي الصديق صديقًا بصدقه لك، وسمي العدو عدوًا لعدوه عليك لو ظفر بك.

وقال أيضًا: من لم يقدم الامتحان قبل الثقة، والثقة قبل الأنس، أثمرت مودته ندمًا ، ليكن الأنس أعلى وأغلى مودتك، وأبطأها عرضا على صديقك .

وقال: علامة الصديق إذا أراد القطيعة أن يؤخر الجواب، ولا يبتدئ بكتاب .

وقال: إخوان السوء يتفرقون عند النكبة، ويقبلون مع النعمة ، ومن شأنهم التوصل بالإخلاص والمحبة إلى أن يظفروا بالأنس والثقة، ثم يوكلون الأعين بالأفعال، والأسماع بالأقوال، فإن رأوا خيرًا ستروه، وإن رأوا شرًا أو ظنوه أذاعوه ونشروه .

وقال آخر: إنما تطيب الدنيا بمساعفة الإخوان ونفع بعضهم بعضًا

فى كل باب، وإلا فعلى الصداقة الدمار، وما أرجو إذا كانت تنقطع فى الآخرة، ولا تتصل بما أحب فى الدنيا.

قال شاعر :

أنت امرؤ قصرت عنه خليقته إلا من الغش للأدنين والحسد

حدثنا ابن مسرف قال: كان بين محمد بن السماك وبين رجل مؤاخاة فانقطع عنه الرجل، فكتب إليه ابن السماك: أما بعد، فإن لكل شيء ثمرة، وثمرة المودة الزيارة، والسلام. وكتب فى آخره:

لقد ثبتُّ فى القلب منك مودّةً كما ثبتت فى الراحتين الأصابعُ

فأجابه الرجل: أما بعد يا أخي فقد زرعت في قلوبنا مودتك ، فتعهد زرعك بسقي الماء وإلاّ فلا تأمَنْ، والسلام .

كتب ابن آكمل إلى ابن سورين، وكان بينهما ود متوارث: إن رأيت أن تروى ظمأ أخيك بغرتك، وتبرد غليله بطلعتك، وتؤنس وحشته بأنس قربك، وتجلو غشاء ناظره بوجهك، وتزين مجلسه بجمال حضورك، وتجعل غداءك عنده فى منزلك الذي هو فيه ساكن ، وتهب له السرور بك باقي يومه ، مؤثرًا له على شغلك فعلت إن شاء الله .

فأجابه: كيف أروى ظمأك إليّ مني، وأنا أشد ظمأ إليك منك إليّ، وعلى حيلولة ذلك، فالتلاقي أبرد لغليل النفس، وأجلب لما شرد من الأنس، وها أنا قد هيأت كلي لطاعتك، وبشرت روحي بالاستمتاع بحديثك، وأخذت عياذ الاستفادة منك، وَصُلْتُ على الدهر وأبنائه بما

ملكته من تشريفك، والسلام.

كتب الحسن بن وهب إلى صديق له يعلمه صبابته إليه، ووحشته لفراقه فقال: وقد قسمك الله بين طرفي وقلبي، ففي مشهدك أنس قلبي، وفي عينيك لهو طرفي، فأجابه الصديق: وقفت على الفصل الذي أخبرت فيه بما أخبرت، فسيان عليك رأيتني أم لم ترني، إذا كان بعضك يؤنس بعضًا فتسلو عني، ولكنني أراك فيخشع قلبي، وأغيب عنك فتدمع عيني، فسيان بين من سلا أبده، ومن حُزنَ أمده .. فكتب إليه الحسن: يا خانقًا على الجرة، ثم تمثل:

أُعَلِّمُه الرماية كلَّ يومٍ فلمَّا اشتدَّ ساعِدُه رماني

وكتب آخر: ما أعلمني أن في سعة صدرك، وفضل رأيك، وعلو قدرك، ويُمن تدبيرك، وشدة تحصيلك، وما مكن الله لك من سلطانك ما أغنى عن مسألتي عما أراه في أمري، فوالله ما حُلْتُ لك من عهد، وموالاة إلى عداوة، ولا عن وفاء إلى غدر، ولا عن شكر إلى كفر، ولا قصرت فيما ظننت أنه يقضي عني الحق بما بلغته الطاقة والوسع، فإن تكن الدنيا بلغتني ما لا يجدى معه سعي، فذلك على الزمان لا عليّ:

ما كلف الله نفسًا فوق طاقتها ولا تجودُ يدٌ إلا بما تجدُ

فوالله ما كنت بذميم العهد لك في وقت شدة ولا رخاء، ولا في حال سراء ولا ضراء على قدر ما تبلغه طاقتي وتناله يدي، وليس من قصر به القدر بملومٍ على تقصير، ولا من نصح بالنية– إذا أعجزه الفعل–

بمعدود في أهل الغش .

قال كاتب : وإن الذي " يعلم السر وأخفى " ليعلم أني لم أحل لك عن عهد، ولا رجعت لك عن ود ، ولا انطويت لك على غل، في وقت رخاء، ولاشدة ، ولانعمة ، ولا محنة، ولا خلقتك بقبيح في نفس ولا مال ولا عرض من الاعراض، اللهم إلا ان تكون تعتد على بعتاب اجريته بيني وبينك في بعض ما يعاتب الصديق صديقه ، وما ظننت أن ذلك يخرج عن طريق المودة، أو يوجب العداوة والجفوة؛ لأنه امر سلكت فيه سبيل نصيحة لم أمل فيه إلى غش لك ولا خيانة، وربما احتملت للناصح الكلمة المرة ، ولم تخرجه عن حد الأمانة والثقة وإن كان مخطئًا في المشورة، لأنه قد اجتهد عند نفسه ولم يرد سوءًا ولا غائلة .

كتب عمارة بن حمزة إلى محمد بن زياد الحارثي يطلب إخاءه :

أما بعد، فإن أهل الفضل في اللب، والوفاء في الود، والكرم في الحق لهم من الثناء الحسن في الناس لسان صدق يشيد بفضلهم، ويخبر عن صحة ودهم ، وثقة مؤاخاتهم ، فتجوز لهم بذلك رِعْية الإخوان، وتصطفي لهم سلامة الصدور، وتجتبي لهم ثمرة القلوب، ولقد لزمتَ من الوفاء والكرم فيما بينك وبين الناس طريقة محمودة نسبت إلى مرتبها في الفضل، وجمل بها ثناؤك في الذكر، وشهد لك بها لسان الصدق، فعرفت بمناقبها، ووسمت بمحاسنها، وأسرع إليك الإخوان بمحبتهم مستبقين، وبرغبتهم فيك متقاطرين، يبتدرون ودك ويصلون حبلك، فمن أثبت الله عندك ودًا فقد وضع خلته عندك موضع الخرز والثقة،

وملأ به يديه من أخي وفاء وصلة واستنام بك إلى شعب مأمون، وعهد محفوظ، وصار مغمورًا بفضلك عليه في الود يتعاطى من مكافأتك ما لا يستطيع، ويتطلب منه ما لا يلحق، ولو كنت لا تؤاخي إلا من كان في وزنك وبلغ من الخلال مبلغ حدك، وما آخيت أحدًا ولكُنْتَ من الإخوان صفرا، وقد رأيت أن آخذ بنصيبي من ودك، وأصل وثيقة حبلى بحبلك، وعلمت أن تركي ذلك غبن، وإضاعتي إياه جهل.

وله: غير أني إن كنت مقصر القوة فلست بمقصر النية، وإن كنت مقصر الرأى فلست بمقصر الرغبة.

وله أيضًا: أما بعد فإن خير الإخوان من عظم حلمه، وحسن لفظه، وشرهم من عجلت بادرته، وساءت مقالته، وقد عرفنا فضلك، وعدنا إلى موافقتك، فصل الأول من طولك بالآخر من مراجعتك..

وله: لا شك كمن يرى الحسن من نفسه ويتغابى عن القبيح من غيره، وإني المأمون اليوم في إخائه المداوم لمن عاهد بوفائه، والغالب على الأكثر ملق النطق، والتلافي بالظنون.

قال أبو الربيع: ما إن بلوت أحدًا إلا ردني إليك ابتلاؤه، ولا قفوت أثرًا إلا عطفني عليك اقتفاؤه، ولئن امتحنت سريرة قلبي بالشكر على إحسانك، كما امتحنت عزيمة رأيي بالصبر على حرمانك لتهجمن بك شهودٌ من ظاهر فعال على عيونٍ تبصر بها باطن وفاء، وأن تحملني حقائظك، وتليسني ذمامك، ويشتمل عليَّ وفاؤك، وينفعني اليوم ما

سلفت فيك بالأمس أكن وكيلاً لسمعك في قلبي، وأمينًا لعينك على، فإني خفيف المؤونة، لطيف المعونة، لا قليل غنمًا، ولا سائل أكلاً، ولا ساخطٌ منك منزلةً فُويق العامة، ودوين الخاصة، ما لم ترفعني فوقها، وتوجب لي ضعفها ..

وقال كاتب: ما إن يكلفني على معرفة من الثمن إلا الإقرار له بالمنن، وله عليّ المنة والنعمة، والتطول والحجة فيما ترك وصنع، وأعطى ومنع، والله لقد بذل فكان بذله طويلاً يربى على حقي، ومنع فكان منعه أدبًا يعطفني على حظي، وعاتب فكان عتابه تجديدًا لنعمه عندي، وتحضيضًا على تقوية نيته في نفعي..

وكتب يوسف بن القاسم بن صبيح إلى محمد بن زياد: حفظك الله وحاطك، رأيتك - أكرمك الله - في خرجتك هذه رغبت عن مواصلتنا بكتبك، وإبلاغنا طيب خبرك، وقطعتنا قطع ذي السلوة، أو أخي المَلة، حتى كأنك كنت إلى مفارقتنا مشتاقًا، وعلى البعد منا توّاقًا، فوقع بعدك بحيث توخيت من جهتين: إحداهما حلاوة الولاية، والأخرى لذة الراحة، فإن يكن ذلك كما رجمناه قاطعناك مجملين، أو لبسناك على يقين، وإن يكن إدلالاً بهدية أعددتها لنا من ناحية عملك، فليس قدر الهدايا وإن كثرت، ولا الفوائد وإن جلت احتمال لوم الإخوان، إذا كانت الهدايا إنما تراد لهم، والفوائد إنما تنال بهم، والمباهاة بأعراض الدنيا تؤثر بخلطائهم، وما أدري ما أقول في اختيارك ترك المكاتبة المحدثة عن الغيب بالأسرار المكتومة، والرسائل المعلومة والأمور المفهومة، حتى

كأنها محادثة، الحضور، على تنائي الدور، والقلوب بها مشاهدة، وإن كانت الأبدان متباعدة، ولئن كذب فيك الرجاء فقد نمى عن الوفاء، وقد أصبتك من مرارة العتاب بما لا يقيم بعده على قطيعة ولا جفاء، فلا تتوهمن أني أردت إعتابك لعتابي ، ولا إزراءك بكتابي ، فإن وصلت فمشكور ، وإن قطعت فمعذور ..

قال حكيم: المودة تعاطف القلوب، وائتلاف الأرواح وحنين النفوس إلى مباثة السرائر، والاسترواح للمستكنات في الغرائز من وحشة الأشخاص عن تباين الالتقاء ، وظاهر السرور بكثير بكثرة التزاور..

قال ابن عباس: إن الذباب ليقع على صديقي فيشق عليَّ .

وقال ابن سيرين: لاتلق أخاك بما يكره .

وقال حبيب بن أبي ثابت: ليس من الأخوة أن يسر الرجل عن أخيه الحديث .

وقال أعرابي: آخِ متبعًا يكن عدوك صريعًا .

وقال آخر: الصاحب كالرقعة في الثوب فلينظر الرجل بما يرقعه.

وقال بعض السلف: شر الإخوان من تتكلف له .

* * *

مع الشعراء :

قال عبد الله بن طاهر :

ما المرء إلا اثنان : هذا موكّلٌ بما يعجب الإخوان إن قال أو فعلْ
فينزل محمودًا إذا حلّ منزلاً ويرحلُ مفقودًا إذا قيل :قد رحلْ
فأما الذي لا خير فيه فإنه وإن أطعم السلوى والعق من عسلْ
يذيب عن لحم العدو مخافة ويأكل من لحم الصديق إذا أكلْ
وما قلبه إلا وعاءٌ مُعَطّلٌ من الود محشوٌّ من الغل والدَّغلْ

وقال دعبل في معاذ بن سعيد الحميري :

فإذا جالسته صدّرتهُ وتنحّيتَ له في الحاشيه
وإذا سايرته قدّمته وتأخرت مع المستأنيه
وإذا سايرته صادفته سلس الخلْق سليم الناحيه
وإذا عاشرته ألْفيتهُ شرس الرأي أبيًا داهيه
فاحْمد الله على صحْبته واسأل الرحمن منه العافيهْ

وقال كثير :

ولستُ براضٍ من خليل بنائل قليل ولا راضٍ لـه بقليل
وليس خليلي بالملول ولا الذي إذا غبْتُ عنـه باعني بخليل
ولكنْ خليلي من يدوم وصالُهُ ويحفظ سرّي عنـد كل خليل

وقال آخـر :

لا تثقن بامرئٍ طويّتهُ غشّ ويندى اللسـان بالملق

فربما يلبس الجديد   لأن يستر ما تحته من الخلق

وأنشد الأصمعي ولم يسم قائله :

تبدى لك العين ما في نفس صاحبها   من الشناءة أو ود إذا كانا
إن البغيض له عين يصد بها   لايستطيع لما في الصدر كتمانا
وعين ذي الود ما تنفك مقبلة   ترى لها محجرًا بشًا وإنسانا
والعين تنطق والأفواه صامتة   حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

قال العطوى :

لا تبك إثر مُولٍّ عنك منحرف   تحت السماء وفوق الأرض أبدال
الناس أكثر من أن لا ترى خلفا   ممن زوى وجهه عن وجهك المال
ما أقبح الوصل يدنيه ويبعده   بين الصديقين إكثار وإقلال

وقال الصنوبري :

يا ناصحًا مازال يَتْبع نصحه   غشًا إذا نصح الصديقَ صديقه
فله العزاء، يروم لست أرومه   قلت السلو يطاق لست أطيقه

وقال آخر :

رميت هواى من مرمى قريب   وكنت أخي فصرت أخا الخطوب
قدرت من الجسوم على تناء   ولكن لاتنائي للقلوب
فممن تطلب الإنصاف يومًا   إذا جار الأديب على الأديب

وقال آخر :

كم من صديق صادق الظاهر   متفق الأول والآخر

أطمعتني في وده مطمع ... من خاطري لا كان من خاطر
حتى إذا ما قلت: فازت يدي ... بمثله فوز يد القامر
وجدت في كفي منه كما ... قد ملئت منه يد الزامر

وقال آخر:

رأيتك لا تختار إلا تباعدي ... فباعدت نفسي لاتباع هواكا
فبعدك يؤذيني وقربي لكم أذى ... فكيف احتيالي يا جعلت فداكا ؟

وقال آخر:

رأيتك تخفوني فأحدثت عزلة ... لتخفي الذي تأتي إليّ فتعذرا

وقال آخر:

أطل حبل الثناءة لي وبغضني ... وعش ما شئت فانظر من تُضيرُ
فما بيديك نفع أرتجيه ... وغير صدودك الخطبُ الكبيرُ
إذا أبصرتني أعرضت عني ... كأن الشمس من قبلي تدورُ

وقال آخر:

وذوي ضباب مظهرين عداوة ... قرحي القلوب معاودي الأكباد
ناسيتهم بغضاءهم وتركتهم ... وهم- إذا ذُكر الصديق- أعادي

وقال آخر:

إذا المرء أعراه الصديق، بدا له ... بأرض الأعادي بعض ألوانها الربد

وقال آخر:

أحب الفتى ينفي القواحش سمعه ... كأن به عن كل فاحشة وقرا

سليم دواعي الصدر لا ناشطًا أذى ... ولا مانعًا خيرًا ولاقائلاً هجرا
إذا ما أتت من صاحب لك زلة ... فكن أنت محتالاً لزلته عذرا
غنى النفس ما يكفيك من سد خلة ... فإن زاد شيئًا عاد ذاك الغنى فقرا

وقال آخر :

وأنت امرؤ إما ائتمنتك خاليًا ... فخنت ، وإما قلت قولاً بلا علم
فأنت من الأمر الذي كان بيننا ... بمنزلة بين الخيانة والإثم

وقال آخر :

لعمرك ما أدرى وإني لأوجلُ ... على أينا تغدو المنيةُ أولُ
وإني أخوك الدائم العهد لم أَحُلْ ... إن ابْدال خصمٌ أو نبا بك منزلُ
أحارب من حاربت من ذى عداوة ... وأحبس مالي إن غرمت فاعقلُ
وإن سؤتني يومًا صفحتُ إلى غد ... ليعقب يومًا منك آخر مقبلُ
كأنك تشفي منك داء مساءتي ... وسخطي وما في ريبتي ما تعجلُ
وإني على أشياء منك تريبني ... قديمًا لذو صفح على ذاك مجملُ
ستُقْطَعُ في الدنيا إذا ما قطعتني ... يمينك فانظر أي كفٍّ تبدّلُ
وفي الناس إن رثت حبالك واصلُ ... وفي الأرض عن دار القلى متحولُ
إذا أنت لم تَنْصفْ أخاك وجدته ... على طرف الهِجْران إن كان يعقلُ
ويركب حدَّ السيف من أن تضيمه ... إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحلُ
وكنت إذا ما صاحب رام ظِنتي ... وبدل سوءا بالذى كنت أفعلُ
قلبتُ له ظهر المجنِّ فلم يدُمْ ... على ذاك إلا ريثما يتحوّلُ

قال العرجي :

ولابعدي يغير حال ودي ... عن العهد الكريم ولا اقترابي
ولا عند الرخاء أخون يوما ... ولا فاقة دنست ثيابي
ولايغدو على الجار يشكو ... أذاتي ما بقيت ولا اغتيابي
وما الدنيا لصاحبها بحظ ... سوى حظ البنان من الخضاب
إذا ما الخصمُ جار فقل صوابا ... فإن الجور يدفع بالصواب
فإني لايغول النأى ودى ... ولو كنا بمنقطع التراب

قال آخر :

فلولا أن فرعك حين ينمى ... وأصلك منتمي فرعى وأصلى
وإني -إن رميت رميت- عظمى ... ونالتني - إذا نالتك - نبلى
لقد أنكرتني إنكار خوف ... يضم حشاك عن شتمى وأكلى

وقال المتلمس :

ولو غير أخوالي أرادوا نقيصتي ... جعلت لهم فوق العرانين ميسما
وما كنت إلا مثل قاطع كفه ... بكف له أخرى فأصبح أجذما
يداه : أصابت هذه حتف هذه ... فلم تجده الأخرى عليها مقدما
فلما استفاد الكف بالكف لم تجد ... له دركا في أن تبين فأحجما
فأطرق إطراق الشجاع ولو رأى ... مساغا لأنياب الشجاع لصمما

وقال آخر :

وإذا شتمتُ فتى، شتمتُ حديثه ... وإذا سمعتُ غناءه لم أطرب

قال آخر :

له خلائقُ بيضٌ لايغيّرها ... صرْف الزمان كما لايصدأ الذهبُ

وقال آخر :

قل للذين صحبناهم فلم نرهم ... إلا لمن صحبوا يرضون بالدون
سلامة الدين والدنيا فراقكم ... وقربكم آفة الدنيا مع الدين
أنا النذير لمغبون بصحبتكم ... مجارف، جاهل بالأمر مفتون
خاب الغبين الذى يبقى مودتكم ... وليس هاجركم عندى بمغبون

وأخبرنا ابن مقسم : أنشدنا أحمد بن يحيى الشاعر :

وإنى لتصفو للخليل مودتى ... قد جُعلتْ أشياءُ منه تريبُ
أخاف فجاءات العتاب بصاحبى ... وللجهل من قلب الحليم نصيبُ
فإن فاء لم أعدد عليه ذنوبه ... وهل بعد فينات الرجال ذنوبُ

وقال ابن عروس :

يا فتى كانت به دنيا ... ى تصفو وتطيبُ
وله كانت تضيق الأر ... ض بى حين يغيبُ
ما الذى رابك والأيا ... م مازالت تريبُ
فيم إعراضك عنى ... أيها الحر اللبيب
أملالا فهو ما لي ... س يداويه طبيب
أم لظن فامتحن ... فالظن يخطى ويصيب
أم لعتب فعتاب الحـ ... ـر يجدى ويثيب
أم لذنب فلك اللـ ... ـه بأنى سأتوب

قال شاعر :

كيف صبرى عن بعض نفسى ... وهل يصبر عن بعض نفسه الإنسان؟

وقال آخر :

وإذا أرادك صاحب بخيانة | جعل التجنى للجفاء سبيلا
لترى دواعى الهجر فى حركاته | وكفى بذلك شاهدًا ودليلا

وأخبرنا المرزبانى قال: حدثنا ابن أبي الأزهر قال: أنبأنا بندار قال: أنشدني ابن السكيت :

إني لأصبر من عود به جلب | عند الملمات إلا عند هجران
إذا رأيت ازورارًا من أخي ثقة | ضاقت عليَّ برحب الأرض أوطاني
وما صدود ذوات الدل أرمضني | لكنما الهجرُ عندى هجر إخواني
فإن صدفت بوجه كي أجازيه | فالعين غضبى وقلبى غير غضبان

وقال آخر :

وكم من أخ فارقت لو كان أمره | إلى طوال الدهر لم تتفرق

وقال آخر :

إذا شئت أن لا يبرحَ الودُّ دائما | كأفضل ما كانت تكون أوائله
فآخ فتى لا القــذفاتُ ولَــدْنَه | كريمًا كنصل السيف حلو شمائله
فذاك الذى يرضيك صارم حده | ويكفيك من لهو الكواعب باطله

وقال آخر :

ومولى كداء البطن ليس بزائل | تدب أفاعيه لنا والعقاربُ
دملت على أشياء منه لو أنها | تنمم لم يسلم عليهن صاحبُ
أمولاى إني لاتكون عداوتى | عليك ولكني بوترك طالبُ

وقال آخر :

قَلْبُ واتخذني جُنَّة تتقي بها عدوَّك إن نابتْ عليك النوائبُ

وقال آخر :

إني ليحمدني الخليلُ إذا احتوى مالي ، ويكرهني ذوو الأضغان

وقال آخر :

إني تودكم نفسي وأمنحكم حبي ، ورُبَّ حبيب غير محبوب

وقال آخر :

أجامل ذا الضغن المبين ضغنه وأضحك حتى يبدو الناب أجمعُ
وأهدية عمدا بالقول ولو يرى سريرة ما أخفى لظلَّ يفزَعُ

وقال آخر :

وما المرءُ إلا بإخوانه كما تقبض الكف بالمعصم
ولا خير في الكف مقطوعةً ولاخير في الساعد الأجذم

* * *

من أقوال أبي سليمان والتوحيدي:

قلت لأبي سليمان: هل يلاث ما بين الصديقين؟ وهل يفيضان إلى هجر؟ وهل يفزعان إلى عتب؟ فقال: أما ما دامت الصداقة قاصرة عن درجتها القاصية، فقد يعرض هذا كله بينهما، لكنهما يرجعان فيه إلى أس المودة، وإلى شرائط المروءة، وإلى ما لا يهتك سجف الفتوة، وأما الهجر فإن حدث حدث جميلاً، ولا مستمر لخوافر الشوق إلى المعهود ومحركات النفس إلى التلاقي، وأما العتب فربما أصلح ورد الفائت، وشعب الصدع، ولم الشعث، والإكثار منه ربما عرض بالحقد، وأحدث نوعًا من النبوة، وقد قيل: وما صافيت من لا تعاتبه، وربما كان العود إلى الصفاء بعد هذا الكدر فوق ما عهداه في الأول. وقال الأول:

أناس أعناهم فنموا حديثنا ... فلما كتمنا السر عنهم تقولوا

ولم يحفظوا الود الذي كان بيننا ... ولا حين همّوا بالقطيعة أجملوا

قلت فما الفرق بين الصداقة والعلاقة؟ فقال: الصداقة أذهب في مسالك العقل، وأدخل في باب المروءة، وأبعد من نوازي الشهوة، وأنزه عن آثار الطبيعة، وأشبه بذوي الشيب والكهولة، وأرمى إلى حدود الرشاد، وآخذ بأهداب السداد، وأبعد من عوارض الغرارة والحداثة..

فأما العلاقة فهي من قبل العشق، والمحبة والكلف، والشغف، والتتيم، والتهيم، والهوى، والصبابة، والتدانف، والتشاجي. وهذه كلها أمراض أو كالأمراض بشركة النفس الضعيفة، والطبيعة القوية، وليس للعقل فيها ظل، ولا شخص، ولهذا تسرع هذه الأعراض إلى الشباب من الذكران

والإناث، وتنال منهم وتملكهم، وتحول بينهم وبين أنوار العقول، وأداء النفوس، وفضائل الأخلاق، وفوائد التجارب، ولهذا وأشباهه يحتاجون إلى الزواجر، والمواعظ ليفيئوا إلى ما فقدوه من اعتدال المزاج، والطريق الوسط. على أن العشق والمحبة وما يحويهما فيهما كلام من نحو آخر.

وأنشد أبو عبيدة :

إن كنت لاتصحب إلا فتى ... مثلك لم تقرن بأمثالكا

فأغض عينيك على ما ترى ... فالمسك قد يستصحب الراسكا

يقال : راسك. وراسك سمعته من الحسن بن عبد الله الإمام السيرافي، (وهو شيء أسود يخلط به المسك).

عتب ابن ثوابة أبو العباس على سعيد بن حميد في شيء فكتب إليه سعيد :

أقلل عتابك فالزمان قليل ... والدهر يعدل مرة ويميل

سمعت ذا الكفايتين ابن العميد ببغداد يقول : إنشاء المعرفة صعب، فلما ندرنا (خرجنا) من مجلسه قال أبو إسحاق الصابي : تربيتها أصعب من إنشائها عرضت هذا الكلام على أبي سليمان فقال : أما الإنشاء فإنما صعب لأنه لا أوائل له يناط بها ويؤسس عليها ، وأما التربية فإنما صعبت أيضًا لأنها تستعير من الإنسان زمانًا مديدًا هو يشح به ، وعناء متصلاً يشتد صبره عليه ، ومالاً مبذولاً قلما تطيب النفس بإخراجه إلا إذا كان الكرم له طباعًا ، ويجد من ضريبته إليه نزاعًا ..

من آراء التوحيدي في الصداقة والصديق :

يؤكد التوحيدي على قيمة الصداقة، ويشدد على التمسك بالصديق وينصح بإظهار الود له ، رغم كل شيء .. يقول :

ليس ينبغي – أبقاك الله – أن تغضب على صديقك ، إذا نصح لك في جليلك ودقيقك، بل الأقمن بك والأخلق لك أن تتقبل ما تقوله، وتبدي البشاشة في وجهه ، وتشكره عليه حتى يزيدك في كل حال ما يجملك، ويكبت عدوك، والصديق اليوم قليل، والنصح أقل، ولن يرابط الصديق إذا وجد بمثل الثقة به والأخذ بهديه، والمصير إلى رأيه والكون معه في سرائه وضرائه، فمتى ظفرت بهذا الموصوف فاعلم بأن جدك قد سعد، ونجمك قد صعد وعدوك قد بعد، والسلام .

ويورد التوحيدي ما دار بين ابن المعتز الشاعر وصديق له . يقول :

كتب عبد الله بن المعتز إلى صديق له : قد أعدت ذكر تصحيح المودة وإخلاص الموالاة بعد أن أكدهما الله لك مني، ومنك عندي، وجللت أعلى المراتب من قلبي وحُزْتَ أجزلَ الحظوظ من ودي، وخاطبك بذلك ضميري، وظهر شاهده من فعلي، فلا تزرين على ما بيننا بالاستزادة بما لا مزيد فيه، والتذكير بما لا ينسى، والتجديد لما لايخلق، والوصف لما قد عرف، حتى كأن الإخاء معتل، وعقد الوصل منحل، والثقة لم تقع، والهجر متوقع وسوء الظن يفرى ويدع .

ويورد بعض الحكايات عن سهل بن هارون ، وما قاله الأعراب في

شأن الصداقة والصديق .

قيل للحراني : بينك وبين سهل بن هارون صداقة فاتعته لنا كي نعرف، فقال : هو كالخير وازن العلم واسع الحلم ، إن حدث لم يكذب، وإن مزح لم يغضب، كالغيث أين وقع نفع، وكالشمس حيث أوقت أحيت، وكالارض ما حملتها حملت، وكالماء طهور لملتمسه ، ونافع لغلة من اخْتَرَ إليه ، وكالهواء الذى تقطف منه الحياة بالتنسم، وكالنار التى يعيش بها المقرور، وكالسماء التى قد حسنت باصناف النور .

قال أعرابى فى صاحب له : أفصح خلق الله كلامًا إذا حَدَّث ، واحسنهم استماعًا إذا حُدِّث ، وأكفهم عن الملاحاة إذا خولف ، يعطي صديقه النافلة، ولا يسأله الفريضة، له نفس عن العوراء محصورة، وعلى المعالى مقصورة، كالذهب الإبريز الذى يعز كل أوان، والشمس التى لا تخفى بكل مكان، هو النجم المضيء للحيران، والبارد العذب للعطشان.

وقال أعرابي : خير الجلساء من إذا عجبته عجب ، وإذا فكهته طرب وإذا أمسكت تحدث ، وإذا فكرت لم يلمك..

قال شاعر :

وخل كنت عين النصح منه	إذا نظروا ومستمعًا سميعا
أطاف بغية فنهيت عنها	وقلت له أرى أمرًا شنيعا
أردت رشاده جهدي فلما	أبى وعصى أبيناه جميعا

كتب بعض الهاشميين إلى يحيى بن خالد : علمي بمودتك يمنعني من استحثاثك، ووصلة إخائي تشكو إليك تقصيرك، وأملي فيك يصبرني على تأنيك .

قال شاعر:

إني لألبسكم على علاتكم   ليس الشفيق على العتيق المخلق
ولقد أرى ما لو أشاء عتبته   وأصد عنه برقة وترفق
ليرى العدو قناتنا لم تنصدع   ويكون ذاك كأنه لم يخلق
وإذا تتبعت الذنوب فلم تدع   ذنبًا قطعت قُوى القرين المشفق
وسمعت أو نقلت إليك مقالة   عوراء نطقتها صموت المنطق

وقال ابن عائشة : مجالسة أهل الديانة تجلو عن القلوب صدأ الذنوب، ومجالسة أهل المروءات تدل على مكارم الأخلاق ، ومجالسة العلماء تزكي النفس .

قال الحسن البصري : ليس من المروءة أن يربح الرجل على أخيه .

وقال الحسن: كان أحدهم يشق إزاره اثنين ، ولايستأثر دون أخيه بورق ولا عين.

وقال الحسن: لأن أقضي لأخ من إخواني حاجة أحب إليّ من أن أصلي ألف ركعة .

وقال الحسن : ما تحابى اثنان ففرق بينهما إلا ذنب يحدثه أحدهما .

وقال الحسن : لا تشتر مودةَ ألفٍ بعداوة واحدٍ .

قلت للأندلسي : مم أُخذ لفظ الصديق؟ قال أُخذَ بنظر من الصدق، وهو خلاف الكذب، ومرة قال الصَّدق ، لأنه يقال: رمح صَدق أي صلب، وعلى الوجهين، الصديق يصدق إذا قال، ويكون صدقا إذا عمل، قال: وصَدْقة المرأة وصداقها وصداقتها كله منتزع من الصَّدق والصُّدق، وكذلك الصادق والصديق، والصدوق والصدقة والمتصدق كل هذا متناسب .

سمعت القاضي أبا حامد يقول : قلت للمنصوري : ما اشغفك بابنٍ عندك مع تشاكس ما بينكما في البلد والمذهب؟ فقال : ذاك لأني وجدته كما قال الشاعر :

موفق لسبيل الرشد متبع	يزينه كل ما يأتي ويجتنب
تسمو العيون إليه كلما انفرجت	للناس عن وجهه الأبواب والحجب
له خلائق بيض لا يغيرها	صرف الزمان كما لا يصدأ الذهب

* * *

تعقيب : أعزائي القراء ..

الرسالة– الصداقة والصديق– طويلة ، تختلط فيها الأقوال عبر العصور. قد يبدأ التوحيدي بالحديث عن ديوجين الفيلسوف ومصباحه العجيب، الذي كان يحمله في وضح النهار ليبحث عن الحقيقة ، ثم ينتقل فجأة إلى الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهي نقلة يتجاوز فيها القرون والعصور، ثم إذا به كذلك يتحدث عن سقراط وافلاطون ، ثم يقطع الحديث ليتحدث عن الخليفة العباسي المأمون أواخر القرن الثاني للهجرة والربع الأول من القرن الثالث الهجري ، ثم يورد اقوال شعراء العصر الذي عاش هو فيه، وهو القرن الرابع الهجرى .. مما يثير البلبلة والحيرة ، ثم يعود ليورد أقوال أرسطو ، ثم يتخطى القرون ليتحدث عن ابن العميد وابن سعدان ، وهكذا دواليك ..

ويلجأ كاتب رسالة الصداقة والصديق إلى حيلة ذكية ، ليعتذر عن الإطالة .. يقول :

قد أتت هذه الرسالة على حديث الصداقة والصديق وما يتصل بالوفاق والخلاف، والهجر، والصلة والعتب، والرضا والملق، والرياء والتحقيق ، والنفاق، والحيلة والخداع، والاستقامة والالتواء، والاستمالة، والاحتجاج والاعتذار، ولو أمكن لكان تأليف ذلك كله أتم مما هو عليه ، وأجرى إلى الغاية في ضم الشيء إلى شكله، وضبه على قالبه، فكان رونقه أبين، ورفيقه أحسن، ولكن العذر قد تقدم، ولو أردنا أيضًا ان نجمع ما قاله كل ناظم في شعره، وكل ناثر من لفظه لكان ذلك عسيرًا بل متعذرًا، فإن أنفاس الناس في هذا الباب

طويلة، وما من أحد إلا وله في هذا الفن حصة؛ لأنه لايخلو أحد من جارٍ أو معاملٍ، أو حميم، أو صاحبٍ أو رفيقٍ ، أو سكنٍ ، أو حبيبٍ، أو صديقٍ، أو أليفٍ، أو قريبٍ أو بعيدٍ، أو وليٍّ أو خليطٍ، كما لا يخلو أيضًا من عدو، أو كاشح، أو مداح ، أو مكاشف ، أو حاسد ...

ويمارس الحيلة نفسها في ختام رسالته .. يقول :

قد تكرر اعتذاري من طول الرسالة ، هذا وكان ظني في أولها أنها تكون لطيفة خفيفة يسهل انتساخها وقراءتها فماجت بشجون الحديث فاقبل حاظك الله هذا العذر الذي قد بدأته وأعدته ، ونشرته وطويته ، على أنك لو علمت في أي وقت ارتفعت هذه الرسالة ، وعلى أي حال تمت ، لتعجبت ، وما كان يقل في عينيك منها ، يكثر في نفسك ، وما يصغر منها بنقدك، يكبر بعقلك ، والله أسأل خاتمة مقرونة بغنيمة، وعاقبة مفضية إلى كرامة .

فقد بلغت شمسي رأسَ الحائط، وبالله استعين على كل ما هَمَّ النفسَ، ووزع الفكرَ، وادنى من الوسواس ، إنه نعم المعين على أمور الدنيا والدين، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه المصطفى محمد وآله الطيبين ، والطاهرين اجمعين وحسبنا الله ونعم الوكيل ..

من هنا استقر رأيي ، وأنا أعرض للرسالة بالتبسيط والشرح ، أن أفضل منهج أقدمه في عرضي وتبسيطي وشرحي للرسالة القيمة هو أن أضم كل فقة ، وأعرضها على نحو مفهوم وميسر ، على النحو الذي تستطيعون فيه، أعزائي القراء، أن تقيدو من الرسالة، وأن تحيطوا

بالأقوال. وفي الحقيقة أكرر أن الرسالة بالغة القيمة ، فالموضوع طريف، والتناول للموضوع فيه جدة، وإيراد الأقوال كان أحيانا يرد بذكر اسم الشعراء ، فإن لم تسعف التوحيدي ذاكرته كان يقول: شاعر، كاتب .

المهم أن الرجل لم يتمثل في كتابه ما صنعه الأصفهاني صاحب الأغاني، أو ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد: من جمع أقوال كل طائفة بترتيب العصور والدهور، مَن السابق، ومَن اللاحق، بل خلط الحابل بالنابل، وترك لنا مهمة إعادة الترتيب والتبويب بحسب الموضوع وطوائف أصحاب الأقوال والأشعار، وهو ما كلفني الكثير من الجهد في القيام بالمهمة الشاقة في عرض الرسالة بأفضل صورة ، وعلى أحسن نحو .

* * *